أبحاث في اللغة

الأستاذ الدكتور
علي ناصر غالب



دار الحامد

أبحاث في اللغة

9789957325671

دار الحامد للنشر والتوزيع
الأردن - عمان- ص.ب.: 366 عمان 11941 الأردن
هاتف: 5231081 فاكس: 009626-5235594
E-mail: dar_alhamed@hotmail.com
daralhamed@yahoo.com
www.daralhamed.net

بسم الله الرحمن الرحيم

أبحاث في اللغة

أبحاث في اللغة

الأستاذ الدكتور

علي ناصر غالب

رقم التصنيف : 410
المؤلف ومن هو في حكمه : علي ناصر غالب.
عنوان الكتاب : أبحاث في اللغة
رقم الإيداع : 2010/11/4266
الواصفات : اللغة العربية// ألفاظ القرآن
بيانات الناشر : عمان – دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.
(ردمك) ISBN 978-9957-32-567-1
تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الطبعة الأولى 2012-1433هـ

دار الحامد للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - شفا بدران - شارع العرب مقابل جامعة العلوم التطبيقية
هاتف: 6 5231081 962+ فاكس: 6 5235594 962+
ص.ب. (366) الرمز البريدي: (11941) عمان – الأردن
www.daralhamed.net
E-mail : daralhamed@yahoo.com

الإهداء

إلى روح والدتي.............

التي تعلمت منها الصبر

وطيبة النفس

يا أطيب الطيوب

المحتويات

المقدمة

تشعبت الأبحاث في مجال اللغة، والعربية إحدى أقدم اللغات، وتباينت الأنظار فيها لكنها بحاجة إلى باحثين وموضوعات للدرس لتبقى العربية لغة حية يحمل لواءها هذا الجيل من الباحثين مثلما حملتها الأجيال السابقة التي مدّت الدرس اللغوي العربي بعطاء نيِّر قلما يضاهيه عطاء، عبر تواصل بين القديم والحديث قلّ نظيره في العديد من الدراسات اللغوية الحديثة، فما زال الباحثون ينهلون من علم القدماء في مختلف مصادر اللغة إذ لا يكاد يخلو مجال من مجالات البحث اللغوي الحديث من الأخذ من تلك المصادر، ولا نكاد نغالي في القول إنّ مصادر اللغويين الأقدمين تشكل تحدياً فعّالا أمام أي دراسة في العربية حتى الآن، إذ إن كتاب سيبويه الخالد عبر مئات السنين وهو واحد من بين عشرات الصادر يمثل قمة في تحدي أي باحث يتبوّأ عمراً وأثراً كعمر كتاب سيبويه وأثره، ولا يعني ذلك التعصب للنتاج اللغوي القديم بقدر ما يعني التواصل معه ووضعه في منزلته السامية إلى جانب الاستفادة مما طرحه الدرس للغوي الحديث مما جاء مبنياً على اجتهاد الباحثين المعاصرين أم مما اقترضوه من الدراسات الغربية الحديثة.

وجدت في عدد من الأبحاث التي أنجزتها وتم نشرها طوال عقدين من الزمان في مجلات علمية محكمة فائدة للباحثين ومفتاحاً لدراسات أكثر اتساعاً وعمقاً، وحرصاً مني على ألا تضيع فيما ضاع من جهود، ورغبة صادقة من دار الحامد في المملكة الأردنية الهاشمية في نشر الدراسات اللغوية الرصينة وإحياء ما اندثر من تراثنا اللغوي ذلك كله كان حافزاً لأن يجعلني أجمع شتات هذه الأبحاث في كتاب واحد بنيته على سبعة أبحاث جعلت لكل بحث مجالاً مع ذكر سنة نشر الكتاب والمجلة التي تنشر فيها لأجل التوثيق وذلك لأني أرى في هذه الأبحاث جملة من الآراء والأنظار اللغوية التي ما يزال البحث اللغوي بحاجة إليها وتشكل في

مجملها دفقات معرفية تصب في نهر العربية الخالد.فأتوجه بالشكر والعرفان إلى دار الحامد والقائمين عليها لإخراجهم هذا الكتاب إلى حيز التداول وأسأل الله العلي القدير أن يمنّ على الجميع بالخير والسعادة.

أ.د. علي ناصر غالب

العرق – بابل – 2010

الفَصْلُ الأَوَّلُ

موقف القرّاء من الآيات القرآنية

الفصل الأول

موقف الفرّاء من القراءات القرآنية(*)

تعدّ القراءات القرآنية مصدراً من مصادر النحويين سواء أكانوا بصريين أم كوفيين، فهي مبثوثة في كتبهم بوصفها شواهد على صحة القواعد التي استنبطوها.

وعلى الرغم من اختلاف مواقفهم من القراءات تبعاً لاختلاف مناهجهم في دراسة اللغة والنحو، لكن القراءات التي اختلفوا في صحة الاستشهاد بها أو القياس عليها لا تعدو أن تكون يسيرة إلى الدرجة التي يمكن حصرها وتوضيح جوانب الاختلاف حولها.

فمن المعروف أن الخليل وسيبويه لم يخطِّئا أية قراءة لكنّ البصريين فيما بعد كانوا متزمتين إزاء قبول طائفة من القراءات فضعّفوها ووصموا أصحابها بالوهم تارة وباللحن وعدم معرفة النحو تارة أخرى.

أما الكوفيون فذهب بعض الدارسين إلى أن موقفهم أكثر انسجاماً مع طبيعة اللغة فقد قبلوا القراءات واحتجوا بها وعقدوا على ما جاء فيها كثيرا من أحكامهم وأصولهم.

وقد مرّت بي أثناء قراءتي كتاب الفراء (معاني القرآن) طائفة من القراءات اتخذ منها الفراء مواقف عدة فعمدت إلى تتبع تلك القراءات في كتابه المذكور فحسب، ولكي يكون البحث وافياً عرضت موقف الكوفيين وأطلت الوقوف عند موقف الفراء بوصفه عماد مدرسة الكوفة في النحو في نظر عدد من الدارسين، فتبين لي أن له مواقف متباينة من القراءات فمنها ما كان يقبله ويحتج به، ومنها ما

(*) نشر البحث في مجلة المورد، المجلد السابع عشر، العدد الرابع، 1988م.

قبله ووجد له وجهاً أو تفسيراً على الرغم من رفض البصريين له، ومنها ما رجحه على غيره، ومنها ما تردد في الطعن فيه أو طعن فيه بغير تردد، فدرست كل موقف على حدة ثم ختمت البحث بخاتمة أجملت فيها أهم نتائج البحث.

موقف البصريين من القراءات القرآنية:

اهتم الخليل وسيبويه بالقراءات القرآنية فلم يخطّئا قراءة بل نظرا إلى القراءات نظرة احترام وتقديس فقد جاء في الكتاب في "باب حروف أجريت مجرى حروف الاستفهام وحروف الأمر والنهي": وقد قرأ بعضهم: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) (فصلت: 17)، إلا أنّ القراءة لا تخالف؛ لأنّ القراءة السنة"[1].

أما بعد الخليل وسيبويه فقد أخضع البصريون القراءات لأقيستهم وقواعدهم، فما وافق تلك المقاييس دون حاجة إلى تأويل قبلوه، أما ما خالف تلك القواعد فضعّفوه وعدّوه شاذاً[2] .

وذهب بعض الباحثين إلى أنهم قد استبعدوا من منهجهم الاستشهاد بالقراءات إلا إذا كان هناك شعر يسندها أو كلام عربي يؤيدها أو قياس يدعمها[3].

وعرف عن المازني أنه "كان يتشدد في الأخذ بالقياس ويردّ ما لا يطرد معه من لغة العرب ومن بعض القراءات للذكر الحكيم"[4].

---

(1) الكتاب: 1/ 148، ط هارون، وينظر: دراسات في كتب سيبويه، الدكتورة خديجة الحديثي: 36.

(2) مدرسة الكوفة، الدكتور مهدي المخزومي: 377، وتابعه في الرأي عدد من الباحثين منهم: د. عبد الحميد السيد طلب،في (تاريخ النحو وأصوله): 82/1، وعبد الجبار علوان في (الشواهد والاستشهاد: 203).

(3) القرآن وأثره في الدراسات النحوية، للدكتور عبد العال سالم مكرم: 97.

(4) المدارس النحوية، الدكتور شوقي ضيف: 119.

ومن القراءات التي رفضها البصريون قراءة ابن عامر: **(وكذلك زُيِّن لكثير من المشركين قتلُ أولادهم شركائهم)** (الأنعام: 137)، حيث قرأها: (زُيّن) بضم الزاي وكسر الياء و(قتلُ) بالرفع و (أولادَهم) بالنصب، و(شركائهم) بالخفض، وقرأ الباقون: (زَيّنَ) بفتح الزاي والياء و(قتلَ) بالنصب، و(أولادِهم) بالخفض، و(شركاؤهم) بالرفع"[1] .

وسبب رفض البصريين قراءة ابن عامر لكونه فصل بن المصدر المضاف إلى فاعله بالمفعول، فقد منع ذلك جمهور البصريين ورموا ابن عامر، وهو من القراء السبعة، الجهل بأصول العربية ورفضوا الاحتجاج بقراءته [2].

وخَطّأوا قراءة إبراهيم وقتادة وحمزة [3] بخفض (الأرحامِ) من قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ ﴾(النساء 1)، فقال النحاس بصدد هذه القراءة: " فأما البصريون فقال رؤساؤهم: هو لحن لا تحلّ القراءة به"[4]، وذكر المبرد أن البصريين: "لا يعطفون الظاهر على المضمر المخفوض ومن أجازه غيرهم فعلى قبح كالضرورة، والقرآن إنما عمل على أشرف المذاهب وقرأ حمزة: (الذي تساءلون به والأرحامِ)، وهذا مما لا يجوز عندنا إلا أن يضطر إليه شاعر كما قال:

فاليومَ قَربــت تهجونـــا وتشــتمنا   فاذهبْ فما بك والإيامِ من عجــب"[5]

---

[1] التبصرة في القراءات، لأبي محمد مكي بن أبي طالب: 199.

[2] إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس: 1/ 582 ـ 582، الإنصاف في مسائل الخلاف، لابن الأنباري: 2/ 436.

[3] ينظر في القراءة، التبصرة: 2/ 436.

[4] إعراب القرآن: 1/ 390.

[5] الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس المبرد: 3/ 39.

وقد أنكر ابن يعيش على المبرد غلوّه في مذهبه ذلك فقال: "وقد ردّ أبو العباس محمد بن يزيد هذه القراءة وقال لا تحلّ القراءة بها، وهذا القول غير مُرْضٍ من أبي العباس لأنه قد رواها إمام ثقة ولا سبيل إلى ردّ نقل الثقة مع أنه قد قرأتها جماعة من غير السبعة كابن مسعود وابن عباس والقاسم وإبراهيم النخعي والأعمش والحسن البصري وقتادة ومجاهد، وإذا صحّت الرواية لم يكن سبيل إلى ردّها"[1] .

وجنح النحاس إلى موقف البصريين في رفض هذه القراءة ونقل رأي المازني في هذه المسألة: "وقال أبو عثمان المازني: المعطوف والمعطوف عليه شريكان لا يدخل في أحدهما إلا ما دخل في الآخر فكما لا يجوز مررت بزيد وكَ وكذا لا يجوز مررت بك وزيدٍ"[2].

ورفض المازني قراءة نافع بن أبي نعيم: (**ولقد مكّناكم في الأرض وجعلنا لكم فيه معائش**) (الأعراف: 10)، حيث همز (معايش) فقال: "أصل أخذ هذه القراءة عن نافع ولم يكن يدري ما العربية وكلام العرب الصحيح في نحو هذا"[3].

وتابعه المبرد في تغليط قراءة نافع فقال: " من قرأ ــ معائش ــ فهمز فإنه غلط، وإنما هذه القراءة منسوبة إلى نافع بن أبي نعيم ولم يكن له علم بالعربية"[4].

وذهب الزجاج إلى أن: " جميع نحاة البصرة تزعم أن همزها خطأ ولا أعلم لها وجهاً إلا التشبيه بصحيفة وصحائف ولا ينبغي التعويل على هذه القراءة"[5].

---

(1) شرح المفصل، لابن يعيش: 3/ 87.

(2) إعراب القرآن: 1/ 390 ــ 391.

(3) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: 4/ 271.

(4) المقتضب، لأبي العباس المبرد: 1/ 123.

(5) البحر المحيط: 4/ 271.

وذهب النحاس مذهب البصريين في عد قراءة نافع لحناً فقال: "وقرأ الأعرج (معائش) بالهمز وكذا روى خارجة بن صعب عن نافع، قال أبو جعفر: والهمز لحن لا يجوز لأنّ الواحد معيشة فزدت ألف الجمع وهي ساكنة والياء ساكنة فلا بد من تحريك، إذ لا سبيل إلى الحذف والألف لا تحرك فحركت الياء بما كان يجب لها في الواحد"(1).

وقد دافع أبو حيان الأندلسي عن قراءة نافع فقال: " فهذا نقل عن الفراء عن العرب أنهم ربما يهمزون هذا وشبهه وجاء بنقل القراء الثقات ابن عامر وهو عربي صراح وقد أخذ القرآن عن عثمان قبل ظهور اللحن، والأعرج وهو من كبار قراء التابعين، وزيد بن علي وهو من الفصاحة والعلم الذي قلّ أن يدانيه في ذلك أحد، والأعمش وهو من الضبط والإتقان والحفظ والثقة بمكان، ونافع وهو قد قرأ على سبعين من التابعين وهم من الفصاحة والضبط والثقة بالمحل الذي لا يجهل،فوجب قبول ما نقلوه إلينا ولا مبالاة بمخالفة نحاة البصرة في مثل هذا"(2).

وأنكر على المازني نقله القراءة عن نافع فحسب ودافع عن عربية نافع، فقال: " إذ هو فصيح متكلم بالعربية ناقل للقراءة عن العرب الفصحاء، وكثير من النحاة يسيئون الظن بالقراء ولا يجوز لهم ذلك"(3).

وقد مالت طائفة من اللهجات العربية القديمة إلى التخلص من أصوات المد الطويلة فجنحت لتحقيق الهمز"(4) وبذلك فما تنبه إليه الفراء من هذا المنحى في

---

(1) إعراب القرآن: 1/ 600– 601.

(2) البحر المحيط: 4/ 271.

(3) نفسه: 4/ 271 ــ 272.

(4) الكتاب: 4/ 179، البحر: 6/ 163، شرح المفصل: 9/ 107، وعزي تحقيق الهمز إلى تميم وقيس وأسد ينظر في ذلك: زاد المسير: 3/ 79، الإتحاف: 179، وينظر: لهجة قبيلة أسد: 113.

سلوك تلك اللهجات يعد خير مبرر لصحة هذه القراءة التي رفضها البصريون فهي انعكاس لأثر لهجي غلب على طائفة من القراءات القرآنية وهذه واحدة منها"[1].

وخطأ البصريون في ضمن ما خطأوه قراءة يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة[2] (**وما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيِّ**) (إبراهيم: 22)، بكسر الياء من (مصرخي)، وعلى الرغم من أن القراءة مروية عن هؤلاء القراء الأعلام فقد عدّوها وهماً ونعتوها بالشذوذ لأنهم يرون أن في ياء المتكلم لهجتين هما: " الفتح والتسكين إذا لم يكن قبلها ساكن فالفتح لا غير"[3].

وقال الأخفش الأوسط فيها: "وهذه لحن لم نسمع بها من أحد من العرب ولا أهل النحو"[4].

وكذلك فعل الزجاج[5] وتابعهم أبو جعفر النحاس فقال: "فقد صار هذا بإجماع لا يجوز"[6].

أما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ (النجم: 50)، فقد قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي (عاداً الأولى) منونة، وقرأ نافع وأبو عمرو بن العلاء (عاد لّولى) مدغمة موصولة[7].

---

(1) هنالك طائفة من القراءات حققت فيها الهمزة، ينظر مفصل ذلك في لهجة قبيلة أسد، رسالة مقدمة إلى مجلس كلية الآداب ــ جامعة البصرة: 121.

(2) ينظر في القراءة، التبصرة: 237.

(3) إعراب القرآن: 2/ 182.

(4) معاني القرآن، للأخفش الأوسط: 2/ 375.

(5) البحر المحيط: 5/ 491.

(6) إعراب القرآن: 2/ 183.

(7) التبصرة: 338.

وقد عد المبرد قراءة نافع وأبي عمرو لحناً ونقل عنه النحاس قوله: "ما علمت أن أبا عمرو لحن في صميم العربية في شيء من القرآن إلا في (يؤدّهْ إليك) (آل عمران: 75) وفي (وإنه أهلك عاد لّولى)"[1].

وفي قولــه تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (النور: 57)، فقد قرأ حمزة وابن عامر (ولا يحسبَنّ) بالياء وباقي السبعة قرأه بالتاء[2].

وعدّ أبو حاتم السجستاني هذه القراءة لحناً إذ قال: "إنّ هذا لحن لا تحل القراءة به ولا يسمع لمن عرف الأعراب وعرّفه"[3] فقد لحن قارئين من القراء السبعة على الرغم مما عرف عنهما من نزاهة ودراية بالعربية.

ذلك جزء مما تيسر الوقوف عليه يمثّل موقف البصريين المتشدد إزاء طائفة من القراءات التي رويت عن قرّاء عرفوا بنزاهتهم ومكانتهم في القراءة ومعرفة العربية، فلم يكن للقراءات التي خالفت منهجهم عاصم فضعفوها ورفضوها وطعنوا في أصحابها ورموهم باللحن والوهم، وهم في نهجهم هذا يعاملون القراءات القرآنية معاملة النصوص اللغوية الأخرى فما لم يوافق هواهم عدوه شاذاً أو يحفظ ولا يقاس عليه"[4].

موقف الكوفيين من القراءات:

تعد القراءات مصدراً من مصادر الكوفيين اللغوية، فتوسعوا في قبولها مثلما توسعوا في الاستشهاد بما سمعوه عن العرب بغض النظر عن مخالطة هؤلاء

---

[1] إعراب القرآن: 3/ 276 ــ 277.
[2] التبصرة: 274.
[3] إعراب القرآن: 682/1 ــ 683.
[4] مدرسة الكوفة: 337.

الكوفيين للقبائل الحضرية، لذا توسعوا في دائرة السماع مثلما توسعوا في دائرة القياس، فقال فيهم السيوطي: "لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوّبوا عليه" [(1)].

وقال في موضع آخر: "إذا سمعوا لفظاً في شعر أو نادر كلام جعلوه باباً أو فصلاً"[(2)].

وقد فرق الدكتور مهدي المخزومي بين موقف البصريين وموقفهم من القراءات فقال: "أما الكوفيون فلهم موقف آخر يغاير موقف البصريين من القراءات كل المغايرة، فقد قبلوها واحتجوا بها وعقدوا على ما جاء فيها كثيراً من أصولهم وأحكامهم، وهم إذا رجحوا القراءات التي يجتمع عليها القراء فلا يرفضون غيرها، ولا يغلطونها، لأنها صواب عندهم أيضاً" [(3)].

وقد ذهب أغلب الدارسين مذهب المخزومي في كون الكوفيين أقل تزمتاً وأكثر حذراً في مسألة تخطيء القراءات ورمي القراء بالوهم وذلك لسيادة الطابع الديني على علماء الكوفيين ولاسيما الكسائي بوصفه أحد القراء السبعة [(4)].

ولعل الراجح في هذه المسألة أن مواقف النحويين اختلفت من القراءات كما اختلفت مواقفهم من مسائل اللغة والنحو فقد صدق هذا على مستوى المنهج النحوي: "أو قد يكون في مواقف يخالف فيها النحوي جماعة مذهبه ويوافق مذهباً آخر أو قد ينفرد هو بالموقف دون أن يتفق مع احد"[(5)]، ولعل هذا الرأي يصدق على مواقف

---

(1) الاقتراح: 105.

(2) همع الهوامع: 1/ 45.

(3) مدرسة الكوفة: 341.

(4) ينظر في ذلك مثلاً: دراسات في كتاب سيبويه: 31، تاريخ النحو وأصوله: 195.

(5) مجلة آداب المستنصرية، العدد الخامس عشر بحث الدكتور زهير غازي زاهد (النحويون والقراءات القرآنية): 120.

الفراء المختلفة من القراءات فقد قبل ما رفضه البصريون وتميز بالخروج عن مذهب الكوفيين في التعامل مع النصوص اللغوية والقراءات ففاضل بينها أو تردد في قبولها أو رفضها، وتجده يطعن في طائفة من القراء ويرميهم باللحن والوهم ولم يسلم من نهجه هذا حتى القراء السبعة بما فيهم أبو عمرو بن العلاء وحمزة الزيات وذلك ما سنبيّنه في الصفحات الآتية.

موقف الفراء من القراءات القرآنية:

لم يطرد موقف الفراء من القراءات في نسق واحد ولذلك قمت بجرد موقفه في كتابه (معاني القرآن) ثم صنفت هذا الموقف إلى موقف القبول وموقف المفاضلة والترجيح وموقف التردد في الطعن في القراءات ثم موقف التخطيء، وإليك هذه المواقف مفصلة على وفق الشواهد التي جمعتها حول موقفه من القراءات:

1- موقف القبول:

وهو موقف يشيع لديه إذ يروي القراءة دون أن يعقب عليها، بل يذكر أوجه الاختلاف في القراءة ويحتج لكل وجه من غير مفاضلة أو ترجيح، ومما يعكس موقفه هذا قوله في قراءة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة: 3).

"اجتمع القراء على رفع (الحمدُ) وأما أهل البدو فمنهم من يقول: (الحمدَ للهِ)، ومنهم من يقول (الحمدِ للهِ)، وقال غيرهم: (الحمدُ لُله) فيرفع الدال واللام"[1].

وقد قرأ الحسن البصري: (الحمدِ لِله)، وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: (الحمدُ لُله) ورويت عن رؤبة بن العجاج: (الحمدَ لِله) [2].

---

[1] معاني القرآن: 1/ 3.

[2] المحتسب، لابن جني: 1/ 37، مختصر في شواذ القراءات، ابن خالويه: 1.

ويعلل الفراء هذه القراءات على اختلافها تعليلاً صوتياً فقال: "وأما من خفض الدال من (الحمد لله) فإنه قال هذه كلمة كثرت على ألسن العرب حتى صارت كالاسم الواحد، فثقل عليهم أن يجتمع في اسم واحد من كلامهم ضمة بعدها كسرة أو كسرة بعدها ضمة، ووجدوا الكسرتين قد تجتمعان في الاسم الواحد مثل: إِبِل فكسروا الدال ليكون على المثال من أسمائهم، وأما الذين رفعوا اللام فإنهم أرادوا المثال الأكثر من أسماء العرب الذي تجتمع فيه الضمتان مثل: الحُلُم والعُقُب"[1].

فمن الواضح أن الفراء فسر كلتا القراءتين وحاول أن يحتج لكل منهما بما يناسبها من النطق العربي السليم دون أن يشذذها أو يخطأئها كما فعل البصريون[2].

وقد ذكر النحاس أن قراءة الحسن البصري موافقة لهجة تميم وقراءة ابن أبي عبلة موافقة لهجة ربيعة[3].

وفسر المحدثون هذه القراءات على أنها إتباع حركي يهدف إلى الانسجام بين الحركات المتباينة في الكلمة الواحدة أو في الكلمات المتجاورة، ويحدث فيها تأثير إحدى الحركات على ما يجاورها، وتعني هذه الظاهرة ميلاً إلى تقليل الجهد العضلي المبذول لتحقيق المجانسة بين أصوات المد القصيرة[4].

وينحو الفراء إلى عرض طائفة من القراءات وقبولها، من ذلك القراءات التي وردت في قوله تعالى: ﴿ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (التوبة: 37)، فقد قرأها عبد الله بن مسعود (يُضَلّ به الذين كفروا)، وقرأها زيد بن ثابت (يَضِلُّ) وقرأها

---

[1] معاني القرآن: 1/ 3ــ 4، وينظر: إعراب القرآن للنحاس: 1/ 120.
[2] إعراب القرآن: 1/ 120.
[3] إعراب القرآن: 1/ 120.
[4] في اللهجات العربية، الدكتور إبراهيم أنيس: 96.

الحسن البصري (يُضِلّ به الذين كفروا) فعرض الفراء هذه القراءات وعلق على قراءة الحسن بقوله: "كأنه جعل الفعل لهم يضلّون به الناس وينسئونه لهم"(1).

وفعل نظير ذلك في الآية الكريمة: ﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴾ (النبأ: 28)، فقال: "خفضها علي بن أبي طالب رحمه الله (كِذابا) وثقّلها عاصم والأعمش وأهل المدينة والحسن البصري، وهي لغة يمانية فصيحة يقولون: كذّبت به كِذّاباً، وخرّقتُ القميص خِرّاقاً، وكل فَعَّلْتُ فمصدره فِعّال في لغتهم مشدّد، قال لي أعرابي منهم على المروة: ألحلقُ أحبّ إليك أم القِصّار؟ يستفتيني"(2).

فنجد الفراء يذكر القراءتين ويحتجّ لإحداهما بما وافقها من لهجات اليمن دون أن يضعّف الأخرى، وقد وردت طائفة من القراءات قبلها لأنها موافقة لإحدى اللهجات العربية القديمة(3).

وإلى جانب ما ذكرت من نماذج تمثل موقف القبول لديه فهنالك طائفة أخرى قبلها أو وجد مسوغاً لها لتقبل أو يقاس عليها(4).

2- موقف الترجيح والمفاضلة:

وفيه نجد الفراء يميل إلى ذكر قراءتين أو أكثر ثم يرجح إحداهما دون أن يخطئ أية قراءة، بل يعمد في أحيان كثيرة إلى ذكر الشواهد التي تسند القراءة التي رغب عنها.

---

(1) معاني القرآن: 1/ 437.

(2) معاني القرآن: 3/ 229، وينظر في القراءة أيضاً: التبصرة: 369.

(3) ينظر: معاني القرآن: 2/ 78، 3/ 164، 3/ 254.

(4) من ذلك ما ورد في معاني القرآن:/ 1/ 426 ــ 427، 2/ 12، 3/ 254.

واستعمل طائفة من التراكيب التي تدل على ترجيحه هذه القراءة على تلك، منها مثلاً قوله: " إنه لأحبّ الوجهين إليّ"، و" الرفع أحبّ إليّ من الجزم "، و"الرفع أجود"، و"الوجه الأول أحسن"، و" لست اشتهي ذلك "، و" لا يعجبني ذلك"، و"فالرفع في قراءتنا أجود من النصب "، و" لست أشتهيه"، ومثل هذه الأحكام نجدها مبثوثة في كتابه (معاني القرآن)[1].

والفراء في هذا الموقف يسلك سبيلين: فإما أن يفاضل بين القراءات ويرجح إحداهما على غيرها دون أن يذكر سبب الترجيح، أو يفاضل بين القراءات ثم يستشهد لما يسندها جميعاً بعد ذلك يميل لإحداها.

وأغلب الظن أن الفراء في موقفه هذا نهج نهجاً خاصاً به لم يوافق ما عرف عن الكوفيين من ميل إلى القراءات وتوسع في القياس والسماع، ويقترب من نهج البصريين المتشدد في السماع والقياس معاً، إلا أنه لم يصل في هذا الموقف إلى رد القراءات أو رفضها بل نجده في مواضع عدة يميل إلى تصويب القراءات التي رفضها البصريون ويعطي من الحجج والشواهد ما يسند صحة استعمالها في اللغة مستشهداً لها بالقرآن الكريم أو الشعر أو أقوال العرب، أو يفسر اختلاف القراءات باختلاف اللهجات.

ومن خلال تتبع موقفه هذا تبين أنه أورد طائفة من الأمثلة التي سأذكر نماذج منها لكثرة ورودها من ذلك مثلاً:

1- " وقد قرأ بعض القراء **(لا يحزنْهم الفزعُ الأكبرُ)** (الأنبياء: 103) بالجزم وهم ينوون الرفع، وقرأوا **(أنلزمْكموها وأنتم لها كارهون)** (هود: 28)، والرفع أحبّ إليّ من الجزم"[2].

---

(1) معاني القرآن: 1/: 276، 2/ 233، 364، 383، 3/ 14، 184، 256، 260.

(2) معاني القرآن: 1/ 88.

فعلى الرغم من ترجيحه الرفع في الفعل المضارع على الجزم أو اختلاس الحركة في قراءة أبي عمرو بن العلاء[1] إلا أنه ذهب ليفسر صواب قراءة أبي عمرو بقوله: " وقوله (أنلزمكموها) العرب تسكن الميم التي من اللزوم فيقولون (أنلزمْكموها) وذلك أن الحركات قد توالت فسكنت الميم لحركتها وحركتين بعدها وأنها مرفوعة فلو كانت منصوبة لم تستثقل فتخفف، إنما يستثقلون كسرة بعدها ضمة أو ضمة بعدها كسرة أو كسرتين متواليتين أو ضمتين متواليتين، فأما الضمتان فقوله (لا يحزنْهم) جزموا النون لأنّ قبلها ضمة فخففت كما قال: رُسْل، وأما الضمة والكسرة فمثل قول الشاعر:

ونــاعٍ يخبِّرنـا بمهلـك سيّـد تقطّع من وجْـد عليـه الأناملُ

وقوله في الكسرتين:

إذا اعوججْنَ قلت صاحبْ قوم" [2].

وقد حكى الفراء عن تميم وأسد أنهم يسكنون المرفوع من (يعلمْهم) ونحوه[3].

وقد وردت قراءة أبي عمرو موافقة لهاتين اللهجتين اللتين تجنحان إلى اختلاس حركة الإعراب.

فرجح الفراء إظهار حركة الإعراب لكونها توافق النطق العربي الفصيح إلا أنه لم يخطئ القراءة الأخرى بل ذكر من الشواهد ما يؤيد صحتها بالإضافة إلى أنه ذكر أن تلك صفة من صفات اللهجات العربية القديمة التي عدت مصدراً للغويين في فترة الجمع اللغوي.

---

(1) الحجة في علل القراءات السبع: 77 ـــ 78.

(2) معاني القرآن: 2/ 12، ينظر تفسير سيبويه لهذه القراءة في الكتاب: 4/ 202.

(3) النشر في القراءات العشر: 2/ 213، الإتحاف: 83.

2- " وقوله في الأنعام: ﴿ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (الأنعام: 27) هي في قراءة عبد الله بالفاء: (نرد ولا نكذب بآيات ربنا) فمن قرأها كذلك جاز النصب على الجواب والرفع على الاستئناف أي فلسنا نكذب، وفي قراءتنا بالواو، فالرفع في قراءتنا أجود من النصب، والنصب جائز على الصرف "[1].

3- ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ (البقرة: 210)، "رفع مردود على الله تبارك وتعالى، وقد خفضها بعض أهل المدينة يريد: "في ظل من الغمام وفي الملائكة" والرفع أجود[2]، ففضل رفع (الملائكة) عطفاً على لفظ الجلالة.

4- " وقوله: ﴿ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ (الدخان: 51).

قرأ الحسن والأعمش وعاصم: (مقام) وقرأها أهل المدينة (في مُقام) بضم الميم، والمقام؛ بفتح الميم أجود في العربية لأنه المكان، والمقام، والإقامة، وكلٌ صواب" [3].

فعلى الرغم من صواب القراءتين فإنه رجح الأولى بفتح الميم من (مقام).

5- ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ (الفجر: 4).

"قرأ الفراء (يسري) بإثبات الياء، و(يسر) بحذفها، وحذفها أحبُّ إليّ لمشاكلتها رؤوس الآيات، ولأنّ العرب تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها "[4]، فهو يرجح القراءة بحذف الياء لكونها منسجمة مع الرسم القرآني لرؤوس الآيات وكونها

---

[1] معاني القرآن: 1/ 276.

[2] نفسه: 1/ 124.

[3] نفسه: 3/ 44.

[4] نفسه: 3/ 260.

توافق ميل بعض العرب لحذف ياء المضارعة، لأنها صوت مد طويل جنحت طائفة من اللهجات إلى تقصيره ".

6- ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (الأعلى: 3).

"القراء يجمعون على تشديد (قدّر) وكان أبو عبد الرحمن السلمي يقرأ (قدَر) مخففة ويرون أنها قراءة علي بن أبي طالب رحمه الله، والتشديد أحبّ إليّ لاجتماع القراء عليه" [1].

فرجح قراءة التشديد لأنّ القراء مجتمعون عليه دون أن يغلط القراءة الثانية أو يرفضها.

7- ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ (فصلت: 17).

"وكان الحسن يقرأ: "وأما ثمودَ فهديناهم" بنصب ثمود وهو وجه، والرفع أجود منه، لأنّ أما تطلب الأسماء وتمنع من الأفعال فهي بمنزلة الصلة للاسم" [2].

8- ﴿ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ (طه: 63).

"وقد اختلف فيه القراء فقال بعضهم هو لحن ولكنا نمضي عليه لئلا نخالف الكتاب... وقرأ أبو عمرو: (إنّ هذين لساحران)... وقرأ بعضهم: (إنْ هذانِ لساحران) خفيفة، وفي قراءة عبد الله: (وأسرّوا النحوى أنّ هذانِ ساحران)، وفي قراءة أبيّ: (إنْ ذانِ إلا ساحران)، فقراءتنا بتشديد إنّ وبالألف على جهتين: إحداهما على لغة بني الحارث بن كعب... والوجه الآخر أن تقول وجدت الألف من هذا دعامة وليست بلام فعل" [3].

---

[1] معاني القرآن : 3/ 256.

[2] المعاني: 4/ 13.

[3] نفسه: 2/ 183 ــ 1845.

فقد رجح القراءة المشهورة لكونها توافق الرسم القرآني ولأنها تمثل طائفة من اللهجات العربية القديمة منها قبيلة بلحارث بن كعب التي تلزم المثنى الألف في حالات الرفع والنصب والجر.

ونهج الفراء في الاعتداد بالرسم القرآني يظهر في أكثر من قراءة من القراءات[1].

9- ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ (الصافات: 12).

" قرأها الناس بنصب التاء ورفعها أحبّ إليّ لأنها قراءة علي وابن مسعود وعبد الله بن عباس " [2]، فرجح القراءة لكونها قراءة هؤلاء الأعلام.

10- ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا ﴾ (الصافات: 8-9).

"بضم الدال ونصبها أبو عبد الرحمن السلمي، فمن ضمها جعلها مصدراً كقولك: دحرته دحوراً، ومن فتحها جعلها اسماً كأنه قال: يقذفون بداحرٍ وبما يَدحَر ولست أشتهيها، لأنه لو وجهت على ذلك على صحة لكانت فيها الباء، كما تقول: يقذفون بالحجارة ولا تقول يقذفون الحجارة وهو جائز، قال الشاعر:

نغالي اللحم للأضياف نيئاً ونُرخصُه إذا نضج القدور

والكلام: نغالي باللحم"[3]، فلم يرد القراءة بل أجازها واستشهد على صحتها إلا أن قراءة ضم الدال هي المفضلة لديه.

---

(1) ينظر في ذلك المعاني: 2/ 183، 2/ 350، 3/ 231، 3/ 260.

(2) المعاني: 3/ 384.

(3) المعاني: 2/ 383، وقد ورد فيه (ترخصه) مُصحّفاً إلا أن رواية اللسان أصوب وهي (نرخصه) فلذلك أثبتّها.

ينظر لسان العرب: 15/ 131 (غلا) ط. دار صادر ــ بيروت.

3- موقف التردد:

على الرغم من قلة الشواهد على هذا الموقف فإني عثرت على شواهد توضح هذا المنحى لدى الفراء، فتجده أولاً يحاول أن يرفض القراءة أو يرمي أصحابها بالوهم ثم تجده يعود عن موقفه الرافض فيقبل القراءة ويستشهد لصوابها مما تيسّر لديه من كلام العرب أو لهجاتهم،فيظهر الفراء وكأنه واقع تحت تأثير منهجين كل منهما يشده إلى تجاه يخالف الآخر، وسنتبين ذلك من خلال القراءات الآتية:

1- ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ ﴾ (إبراهيم: 22).

قال الفراء: "أي الياء منصوبة لأنّ الياء من المتكلم تسكن إذا تحرك ما قبلها وتنصب إرادة الهاء كما قرئ (لكم دينكم ولي ديني) فنصبت وجزمت، فإذا سكن ما قبلها رُدّت إلى الفتح الذي كان لها، والياء من مصرخيّ ساكنة والياء بعدها من المتكلم ساكنة فحركت إلى حركة كانت لها فهذا يطرد في الكلام"[1].

ثم يستشهد على صحة القراءة بما ورد من القرآن الكريم فقال: " ومثلـــه: ﴿ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ (البقرة: 132)، ومثله: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ﴾ (البقرة: 38)، ومثله ﴿ وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي ﴾ (الأنعام: 162)، وقد خفض الياء من قوله الأعمش ويحيى بن وثاب، حدثني القاسم بن معن عن الأعمش عن يحيى أنه خفض الياء، قال الفراء: ولعلها من وهم القراء طبقة يحيى فإنه قلّ من سَلِم منهم من الوهم، ولعله ظنّ أن الياء في (بمصرخيّ) خافضة للحرف كله والياء من المتكلم خارجة من ذلك " [2].

[1] المعاني: 2/ 75.
[2] نفسه: 2/ 75.

ففي الوقت الذي استشهد لقراءة النصب بنصوص من القرآن الكريم، يذكر القراءة الأخرى التي وردت بكسر ياء المتكلم فعدها أول الأمر من وهم القراء، إلا أنه عاد فنقض موقفه واستشهد على صحة قراءة الكسر إذ قال: " وقد سمعت بعض العرب تنشد:

قال لها هل لكِ يا تا فيِّ   قالت له ما أنت بالمَرضيِّ

فخفض الياء من (فيَّ) فإن يك صحيحاً فهو مما يلتقي من الساكنين فيخفض الآخر منهما وإن كان له أصل في الفتح، ألا ترى أنهم يقولون: لم أرَهُ مذُ اليوم ومذِ اليوم والرفع في الذال هو الوجه لأنها أصل حركة مُذْ والخفض جائز فكذلك الياء من مصرخيّ خفضت ولها أصل في النصب"[1].

ونوّه النحاس بموقف الفراء المتردد من هذه القراءة وذكر أن الفراء قد نقض موقفه الرافض لها [2].

وذكر صاحب الخزانة أن كسر ياء المتكلم من (فيّ) يوافق لهجة بني يربوع من تميم لكنه عند النحاة ضعيف[3] لأنه يمثل استعمالاً لهجياً محدوداً

2- ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(الأنبياء: 88).

ومما تردد فيه الفراء موقفه من قراءة عاصم (نُجِّيَ) فقال: "وقد قرأ عاصم ــ فيما أعلم ــ نُجّيَ) بنون واحدة ونصب (المؤمنين) كأنه احتمل اللحن ولا نعلم لها جهة إلا تلك؛ لأنّ ما لم يُسمَّ فاعله إذا خلا باسم رفعه إلا أن يكون أضمر المصدر في (نُجِّيَ) فنوى به الرفع ونصب (المؤمنين) فيكون كقولك:

---

[1] المعاني: 2/ 76 وعزي البيت للأغلب العجلي ينظر: الخزانة: 2/ 258.

[2] إعراب القرآن: 2/ 182 ــ 183.

[3] الخزانة: 2/ 258 ــ 259.

ضُرِب الضربُ زيداً ثم تكني عن الضرب فتقول: ضرب زيداً وكذلك نُجي النجاءُ المؤمنين"[1].

فتجده يجعل قراءة عاصم تحتمل اللحن أول الأمر لأنه بنى الفعل للمجهول دون أن يرفع الاسم بعده ثم يعود ليؤول قراءة عاصم ويجد لها مبرراً لغوياً منسجماً معها.

3- ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ﴾ (النساء: 115).

اختلف القراء في أداء ضمير الغائب المتصل بالفعل المضارع أو الأمر من ذلك اختلافهم فيما ورد من سورة النساء: 115، و﴿ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴾ (آل عمران: 75)، و﴿ نُؤْتِهِۦ ﴾ (آل عمران: 145)، و﴿ أَرْجِهْ ﴾ (الأعراف: 111) و ﴿ فَأَلْقِهْ ﴾ (النمل:28).

فقد قرأ أبو بكر وأبو عمرو وحمزة بإسكان الهاء من (نوله ونصله).

وقرأ قالون بكسر الهاء فيهم من غير ياء، وقرأ الباقون بصلة الهاء بياء في الوصل [2].

وقد قرأ حمزة (يؤدهْ) و(نؤتهْ) و(ارجهْ) و(فالقهْ) بإسكان الهاء، وقرأ عاصم (نودهْ) و(نولهْ) و(نصلهْ) و(فألقهْ) و(يرضهْ) و(نؤتهْ) بإسكان الهاء[3].

---

[1] المعاني: 2/ 210.

[2] التبصرة: 172.

[3] السبعة في القراءات: 212.

وقد خطأ الفراء أول الأمر هذه القراءات فقال:

"إن القوم ظنوا أن الجزم في الهاء وإنما هو فيما قبل الهاء فهذا وإن كان توهماً خطأً" [1].

وقال في موضع آخر: "ومما نرى أنهم أوهموا فيه قوله: ﴿ أَرْجِه ﴾ (النساء: 115)، ظنوا – والله أعلم – أن الجزم في الهاء، والهاء في موضع نصب وقد انجزم الفعل قبلها بسقوط الياء منه"[2].

ويتراجع عن موقفه هذا ليذكر: "أنّ من العرب من يجزم الهاء إذا تحرك ما قبلها فيقول: ضربتهْ ضرباً شديداً، أو يترك الهاء إذ سكنها وأصلها الرفع بمنزلة رأيتهمْ وأنتمْ "[3].

وعاد في الآية: ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ (الأعراف: 111) ليؤكد أنّ تسكين الهاء هو لهجة عربية فقال: "وقد جزم الهاء حمزة والأعمش وهي لغة للعرب يقفون على الهاء المكنى عنها في الوصل إذا تحرك ما قبلها"[4].

فوجدنا الفراء مرة أخرى يرمي هذه القراءات بالخطأ والوهم ثم يعود ليذكر أنّ هذه القراءات جاءت موافقة لإحدى اللهجات العربية القديمة إذ قال أبو حيان نقلاً عند الكسائي: "أن لغة عقيل وكلاب أنهم يختلسون الحركة في هذه الهاء إذا كانت بعد متحرك وأنهم يسكنون أيضاً"[5]، وعزا ابن جني تسكين ضمير الغائب إلى لهجة أزد السراة"[6].

---

(1) المعاني: 1/ 223.
(2) نفسه: 2/ 75 ــ 76.
(3) نفسه: 1/ 223.
(4) نفسه: 1/ 388.
(5) البحر المحيط: 2/ 499.
(6) المحتسب: 1/ 244.

4- ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ (يونس:71).

قرأ الحسن وأبو عبد الرحمن وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر ويعقوب ورويت عن أبي عمرو (شركاؤكم) برفع شركاء عطفاً على الضمير في (أجمعوا)، وقرأ الجمهور: (وشركاءَكم) بالنصب مفعولاً به لفعل محذوف تقديره: (وادعوا)[1].

وتردد الفراء في قبول الرفع لمخالفتها للرسم القرآني ولضعف المعنى عنده[2].

5- ومما يمثل موقف التردد قوله في قراءة الحسن البصري: ﴿ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ (يونس: 16): " فإن يكن فيها لغة سوى دريت وأدريت فلعل الحسن ذهب إليها، وأما أن تصلح من دريت وأدريت فلا، لأنّ الواو والياء إذا انفتح ما قبلها وسكنتا صحتّا ولم تنقلبا إلى ألف مثل: قضيت ودعوت ولعل الحسن ذهب إلى طبيعة فصاحته فهمزها لأنها تضارع درأت الحد وشبهه"[3].

فلم يرفض القراءة رفضاً قاطعاً أول الأمر بل تذرع بأن تكون قراءة الحسن موافقة إحدى اللهجات أو يكون ذلك بسبب من تفاصح الحسن، ويعود في موضع آخر فيما بعد ليطعن في القراءة ويعدها مما يرفض من القراءة"[4].

ولعل قراءة الحسن تمثل ميله إلى تحقيق الهمز جرياً على منهج طائفة من اللهجات العربية القديمة التي جنحت إلى الهمز[5].

---

(1) إعراب القرآن للنحاس: 2/ 67، شواذ ابن خالويه: 57.

(2) المعاني: 1/ 473.

(3) نفسه: 1/ 459.

(4) نفسه: 2/ 216.

(5) لهجة قبيلة أسد: 113.

4- موقف التضعيف والطعن:

ضعف الفراء طائفة من القراءات بل طعن فيها ووصم أصحابها بالوهم حيناً وباللحن حيناً آخر، وإليك ما يؤكد هذا النهج لديه.

1- ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ (الأنعام: 137).

قرأ ابن عامر (زُيِّن) بض الزاي وكسر الياء، و(قتلُ) بالرفع، و(أولادَهم) بالنصب، و(شركائهم) بالخفض،وقرأ الباقون (زَيَّن) بفتح الزاي والياء، و(قتلَ) بالنصب، و(أولادِهم) بالخفض، و(شركاؤهم) بالرفع [1].

فضعف الفراء قراءة ابن عامر وهو من القراء السبعة فقال: " وليس قول من قال: ﴿ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ (إبراهيم: 47)، ولا (زُيّن لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائهم) بشيء، وقد فسر ذلك، ونحويو أهل المدينة ينشدون قوله:

فزَجَجْتُهـــــــا متمكنــــــــاً زجَّ القلـــوصَ أبـــي مَـــزاده

قال الفراء: باطل، والصواب:

زجَّ القلوصِ أبو مَزَادَهْ " [2].

فنجده يحكم على القراءة بالضعف ذلك لأنه لا يجوز الفصل بين المتضايفين بغير الظرف والجار والمجرور إلا إذا كان الفصل لضرورة الشعر في رأي الكوفيين[3]، أما أن يكون ذلك في القراءات فليس ضرورة.

---

(1) التبصرة: 199.

(2) المعاني: 2/ 81 ـ 82، 1/ 358، وينظر: شرح المفصل: 3/ 19.

(3) الإنصاف في مسائل الخلاف: 2/ 427، (المسألة: 6).

غير أن المتأخرين من النحويين أجازوا أن يفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف أو الجار والمجرور، فقد أجاز ابن مالك ذلك فقال:

فَصلَ مُضافٍ شِبْهِ فعلٍ ما نَصَبْ　　مفعولاً أو ظرفاً أجِزْ ولم يُعَبْ[1]

2- ﴿ بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ (الكهف: 28).

"قرأ أبو عبد الرحمن السلمي (بالغدوة والعشي) ولا أعلم أحداً قرأ غيره، والعرب لا تدخل الألف واللام في الغدوة لأنها معرفة بغير ألف ولام، وسمعت أبا الجراح يقول: ما رأيت كغدوة قط، يعني غداة يومه، وذاك أنها كانت باردة، ألا ترى أن العرب لا تضيفها فكذلك لا تدخلها الألف واللام، إنما يقولون: أتيتك غداة الخميس ولا يقولون: غدوة الخميس، فهذا دليل على أنها معرفة"[2].

فهو يضعف القراءة لكونها تخالف سماع الفراء عن العرب، وأغلب الظن أن قراءة أبي عبد الرحمن السلمي هي من باب الميل إلى الضم الذي يعد أحد صفات طائفة من اللهجات العربية القديمة.

3- ﴿ لَا يَلِتْكُم ﴾ (الحجرات: 14).

قرأ أبو عمرو: (ولا يألتكم) بزيادة همزة ساكنة بين الياء واللام ويبدل منها ألفاً إذا سهل الهمزة، وقرأ الباقون بغير همز ولا بدل[3].

وقال الفراء بصدد قراءة أبي عمرو: "وقد قرأ بعضهم: لا يألتكم ولست أشتهيها بغير ألف كتبت في المصاحف وليس هذا بموضع يجوز فيه سقوط

---

(1) شرح ابن عقيل: 3/ 82.
(2) المعاني: 2/ 139.
(3) التبصرة: 333.

الهمز... إنما اجترأ على قراءتها (يألتكم) أنه وجد : ﴿ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ ﴾ (الطور: 21) في موضع مأخوذاً من ذلك، فالقرآن يأتي باللغتين المختلفتين، ألا ترى قوله: ﴿ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ ﴾ (الفرقان: 5) وهو في موضع آخر﴿ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ﴾ (البقرة: 282)، ولم تحمل إحداهما على الأخرى فتتفقا، ولات يليت وألت يألت لغتان"[1].

فقد وردت قراءة أبي عمرو موافقة لهجة أسد وغطفان إذ ورد أنهم يقولون: ألت، بينما يقول الحجازيون: لات يليت[2]،وقد نزل القرآن باللهجتين معاً، فما هو وجه الاجتراء في قراءة أبي عمرو ؟ولماذا يؤاخذه الفراء عليها؟! في الوقت الذي توافق فيه لهجة قبيلتين من قبائل العرب التي عدت مصدراً من مصادر اللغويين في مرحلة الجمع اللغوي، والفراء أعلم بفصاحتهما من غيره لكونه مولى بني أسد[3].

4- ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ (الشعراء: 210).

قرأ الحسن البصري: (وما تنزلت به الشياطون) فغلّط الفراء هذه القراءة وقال: "كأنه من غلط الشيخ ظن أنه بمنزلة المسلمين والمسلمون"[4]. وعدّها في موضع آخر ضمن ما أوهم فيه القراء[5].

وذكر ابن خالويه[6] أنّ الحسن قرأ: ﴿ **واتّبعوا ما تتلو الشياطون** ﴾ (البقرة: 102)، وقرأ: ﴿ **كالذي استهوته الشياطون** ﴾ (الأنعام: 71)، ولا أحسب

---

(1) المعاني: 3/ 74.

(2) البحر المحيط: 8/ 117.

(3) معجم الأدباء، ياقوت الحموي: 20/ 10ط، ليبزك (أوفسيت).

(4) المعاني: 2/ 76.

(5) نفسه: 2/ 384 ـ 285.

(6) شواذ ابن خالويه: 8، 38.

أن أبا الحسن البصري يجهل أن يفرق بين جمع التكسير وجمع المذكر السالم وذلك ما آخذه الفراء عليه، إلا أن الراجح لدي هو أن الحسن عاقب بين الواو والياء في قراءته هذه، والمعاقبة صفة من صفات اللهجات العربية القديمة حيث أثر عن الحجازيين ميلهم إلى الياء في ألفاظ معينة بينما جنح أهل نجد من قيس وتميم وأسد إلى الواو[1] وهذه المعاقبة لا تحدث بين أصوات المد الطويلة فحسب بل تقع بين أصوات المد القصيرة.

5- ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (النور: 57).

قرأ حمزة وابن عامر: (لا يحسبَنّ) وقرأ الباقون بالتاء[2]، وعدّ الفراء القراءة هذه ضعيفة في العربية والصواب عنده أن تقرأ بالتاء[3].

6- وقرأ أبو عمرو[4]: ﴿ **إن هذين لساحران** ﴾ (طه: 63).

وعدّ الفراء قراءة أبي عمرو اجتراءً على كتاب الله فقال بعد أن ذكر القراءة هذه: "ولست اجترئ على ذلك "[5] لكونها خالفت الرسم القرآني.

7- ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ (الشمس: 1).

ذكر الفراء أن (ضحاها) تقرأ ممالة وكذلك كل الآيات التي تشاكلها على الرغم من أن طائفة من الأفعال المعتلة التي تشكل رؤوس الآيات فيها أصل الألف واو فإنها تقرأ ممالة أيضاً مراعاة لما تقدمها لأنّ السورة ابتدأت برؤوس آيات أصلها الياء، فقال: "والضحى هو النهار كله بكسر الضحى من ضحاها وكل الآيات

---

[1] إصلاح المنطق: 139، المخصص: مج 4 سفر 14/ 19.

[2] التبصرة: 274.

[3] المعاني: 2/ 259.

[4] نفسه: 2/ 293، ابتبصرة: 260.

[5] نفسه: 2/ 293 ـــ 294.

التي تشاكلها وإن كان أصل بعضها الواو، من ذلك: تلاها وطحاها ودحاها لما ابتدئت السورة بحروف الياء والكسر واتبعها ما هو من الواو، ولو كان الابتداء للواو لجاز فتح ذلك كله.. فإذا انفرد جنس الواو فتحته، وإذا انفرد جنس الياء فأنت فيه بالخيار إن فتحت وإن كسرت فصواب"[1].

ويوضح الفراء فيما تقدم سبل الإمالة في القراءة فلو انتهت رؤوس الآيات بألف أصلها ياء تمال الألفاظ التي تلحقها في السورة في رؤوس الآيات حتى لو كان أصل بعضها الواو، أما إذا انتهت بألف أصلها واو فتمتنع الإمالة في هذه الحالة، وأما إذا انتهت بألف أصلها ياء فيجوز للقارئ أن يميل أو يفتح، غير أن حمزة الزيات خالف مذهب القراء في الإمالة حيث قرأ رؤوس الآيات ممالة إن كان أصل الألف فيها ياء وفتح ما كان أصله من الواو فقد عاب عليه الفراء قراءته وقال: " وكان حمزة يفتح ما كان من الواو ويكسر ما كان من الياء وذلك من قلة البصر بمجاري كلام العرب" [2].

فمن المعروف أن حمزة أحد القراء السبعة وقراءته ينبغي أن تكون صحيحة متواترة فقد اخذ القراءة عن سليمان الأعمش الذي أخذ القراءة عرضاً على طائفة منهم زر بن حبيش وعاصم ومجاهد[3].

ومن خلال ما تقدم يظهر الفراء أكثر تزمتاً من غيره من الكوفيين وهو يكاد لا يختلف عن البصريين[4] الذين طعنوا في طائفة من القراءات فنراه يضعف القراءة ويرمي طائفة من القراء بالوهم وباللحن وقلة البصر بالعربية.

---

(1) المعاني: 3/ 266.

(2) نفسه: 3/ 266.

(3) غاية النهاية في طبقات القراء: 1/ 315.

(4) وقد عده الدكتور أحمد مكي الأنصاري هو الذي فتح الباب أما البصريين للطعن في القراءات، ينظر: أبو زكريا الفراء: 392 إلا أن الثابت أن أبا عمرو بن العلاء قد سبقه وسبق البصريين

ولعل نهج الفراء هذا لا يمثل نهج الكوفيين بقدر ما يمثل موقفه الخاص به واجتهاده في علوم العربية والقراءات.

وبعد أن تم عرض هذه المواقف المختلفة إزاء طائفة من القراءات يمكن القول إن النحويين بصورة عامة كانوا لا يتحرجون من الطعن في القراءات بل اتجهوا إلى تغليط ما لم يوافق منهجهم في اللغة وقواعدها وهم في ذلك سواء أكانوا كوفيين أم بصريين وخير دليل على ذلك مواقف الفراء المتباينة من القراءات، فعلى الرغم من عنايته بالقراءات إذ لا تخلو صفحة من صفحات معاني القرآن من ذكر أوجه الاختلاف فيها، فإنه خرج عما هو مألوف من الكوفيين لكونه مال إلى الترجيح لسبب أو لغير سبب بل طعن في طائفة من القراءات والقراء.

أما ما أشيع في طائفة من دراسات المحدثين ما مفاده أن للكوفيين نهجاً متسامحاً في محال الاعتداد بالقراءات فذلك لا يصدق على موقف الفراء في الأقل بوصفه علم مدرسة الكوفة في النحو نظراً لرميه طائفة من القراء بالوهم واللحن.

= في مجال الطعن في القراءات، ينظر: أبو عمرو بن العلاء جهوده في القراءة والنحو للدكتور زهير غازي زاهد: 125 ــ 129.

المصادر والمراجع

1. أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة، للدكتور أحمد مكي الأنصاري، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، 1964م.

2. أبو عمرو بن العلاء جهوده في القراءة والنحو، للدكتور زهير غازي زاهد، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، مط جامعة البصرة، 1987.

3. إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، للشيخ أحمد الدمياطي، مط الميمنية، القاهرة / 1317هـ.

4. إصلاح المنطق، ليعقوب بن اسحاق السكيت، تح أحمد محمد شاكر وعبد السلام معروف، ط الثالثة، دار المعارف بمصر، 1970.

5. إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس، تح الدكتور زهير غازي زاهد، ط الأولى، مط العاني، بغداد، 1979.

6. الاقتراح في علم أصول النحو، لجلال الدين السيوطي، تح أحمد محمد قاسم، مط السعادة، القاهرة، 1976م.

7. الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري، ط الرابعة، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1961.

8. البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، نشر مكتبة النصر الحديثة (أوفسيت)، د.ت.

9. تاريخ النحو وأصوله، للدكتور عبد الحميد السيد طلب، مط العلوم، القاهرة.

10. التبصرة في القراءات، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تح الدكتور محيي الدين رمضان، معهد المخطوطات العربية، ط الأولى، الكويت، 1985م.

11. الحجة في علل القراءات السبع ــ، لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي، تح علي النجدي ناصف وآخرين، القاهرة، 1965.

12. خزانة الأدب لعبد القادر بن عمر البغدادي، ط الأولى، مط المنيرية، بولاق، مصر، 12259هـ.

13. دراسات في كتاب سيبويه، للدكتورة خديجة الحديثي , وكالة المطبوعات، الكويت، 1980م.

14. زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، ط الأولى، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، 1964.

15. السبعة في القراءات، لأبي بكر أحمد بن مجاهد، تح الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، د.ت.

16. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تح محمد محيي رالدين عبد الحميد، ط السادسة عشرة، دار الفكر ــ بيروت، 1974.

17. شرح المفصل لابن يعيش، مط المنيرية بمصر، د. ت.

18. الشواهد والاستشهاد في النحو، عبد الجبار علوان، ط. الأولى، مط الزهراء، بغداد، 1976.

19. غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري، تح ج. برغشتراسر، ط الأولى، مكتبة الخانجي، مصر 1932.

20. في اللهجات العربية، للدكتور إبراهيم أنيس، ط الرابعة، القاهرة، مط الانجلو المصرية، 1973.

21. القرآن وأثره في الدراسات النحوية، للدكتور عبد العال سالم مكرم، دار المعارف بمصر، القاهر، 1965.

22. الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، مط نهضة مصر القاهرة د.ت.

23. الكتاب لسيبويه، تح عبد السلام هارون، الهيأة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1971.

24. لهجة قبيلة أسد، علي ناصر غالب، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة البصرة، 1985.

25. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني، تح علي النجدي ناصف وآخرين، 1386هـ.

26. مختصر في شواذ القراءات، لابن خالويه،تح: ج. براغشتراسر، ط الرحمانية، القاهرة، 1934.

27. المخصص لابن سيده، المكتب التجاري ـ بيروت، (أوفسيت).

28. مدرسة الكوفة، للدكتور مهدي المخزومي، ط الثانية، مط البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1958.

29. المدارس النحوية، للدكتور شوقي ضيف، ط الثانية، دار المعارف بمصر، ى1972.

30. مراتب النحويين، لأبي الطيب اللغوي، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، ط الثانية، 1974.

31. المقتضب، لأبي العباس المبرد، تح محمد عبد الخالق عضيمة، ط الأولى، القاهرة، 1385 هـ ـ 1388 هـ.

32. معاني القرآن للأخفش الأوسط، تح الدكتور فائز فارس، ط الثانية، الكويت، 1981.

33. معاني القرآن، للفراء، تح أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، ط الثانية، بيروت 1980.

34. النحويون والقراءات القرآنية، للدكتور زهير غازي زاهد، بحث في مجلة آداب المستنصرية العدد الخامس عشر، 1987.

35. النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، مراجعة علي محمد الضباع، المكتبة التجارية بمصر، د. ـ.

36. همع الهوامع، لجلال الدين السيوطي، تصحيح محمد بدر النعساني، دار المعرفة، بيروت (أوفسيت).

الفصل الثاني

المبرد والقراءات القرآنية

الفصل الثاني

المبرد والقراءات القرآنية(*)

بذل النحويون الأوائل جهداً كبيراً في أثناء وضعهم قواعد النحو العربي فقد شرعوا في استقراء مصادرها الأولى، القرآن الكريم وقراءاته والشعر وكلام العرب الفصحاء والأمثال وهم في استقرائهم كانوا يرومون الدقة والشمول لذلك – فالشاهد النحوي الذي يعتمدونه ما برحوا يتخذونه سنداً لأية قاعدة نحوية يستنبطونها وكلما كثرت الشواهد التي تسند هذه القاعدة أو تلك أضحت أكثر اطراداً لكونها شائعة ومألوفة في الاستعمال.

والقراءات القرآنية تعد مصدراً مهماً من مصادر النحويين وفي الوقت نفسه عدت خير مُعبِّر عن الواقع اللهجي السائد في الجزيرة العربية آنذاك فقد وردت طائفة من القراءات وفيها مظاهر لهجية تمثل قبائل تميم وقيس وأسد وهذيل وغيرها لذلك عني بها دارسو اللهجات واتخذوها مصدراً من مصادرهم. وقد رافقت القراءات القرآنية النحو العربي منذ نشأته فكان للنحويين القدماء أمثال عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وعيسى بن عمر وغيرهما اختيار خاص بالقراءة فضلاً عن أن أبا عمرو بن العلاء يعد أحد القراء السبعة وبعد أن ثبتت دعائم النحو العربي على يد الخليل وسيبويه كانت القراءات مصدراً مهماً من مصادرهما.

وقد تضاربت الآراء في موقف النحويين سواء أكانوا من البصريين أم من الكوفيين من القراءات فمنهم من أنحى باللائمة على البصريين لكونهم طعنوا على

(*) بحث منشور في مجلة أبحاث البصرة، العدد 26، سنة 2001م.

القراءات ووصموا عدداً من القراء باللحن ومنهم من أثنى على الكوفيين لأنهم لم يستبعدوا من منهجهم الاستشهاد بالقراءات وذلك ما سنتبينه من خلال البحث.

وارتأيت أن اتخذ علماً بارزاً من أعلام مدرسة البصرة في النحو وهو أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت285هـ) لكي أسبر موقفه من القراءات لذا عدت إلى كتابيه المقتضب والكامل في اللغة والأدب وجمعت القراءات التي وردت فيهما وما ذكره المبرد من تعليقات تشير إلى موقفه من القراءات على أني لم أكتفِ بذلك بل عدت إلى عدد من المصادر التي ذكرت أن للمبرد موقفاً من هذه القراءة أو تلك فيما لم يرد في كتابيه الذين عدت إليهما وكانا مصدري هذه الدراسة.

وقبل الخوض في موقف المبرد من القراءات لابد من ذكر آراء بعض الدارسين الذين تعرضوا لموقف البصريين من القراءات.

فقد ذهب محمد عبد الخالق عضيمة إلى: " أن الحملة على القراء بردِّ قراءاتهم وتلحينهم استفتح بابها وحمل لواءها زعماء البصرة المتقدمون ثم تطاير شررها إلى من بعدهم فشاركوا فيها"[1].

ورأى الدكتور عبد العال سالم مكرم أن البصريين: "كانوا لا يحتجون بالقراءات إلا في القليل النادر الذي يتفق مع أصولهم ويتناسق مع مقاييسهم"[2].

وذكر أيضاً أن البصريين قد استبعدوا من منهجهم الاستشهاد بالقراءات إلا إذا كان هنالك شعر يسندها أو كلام عربي يؤيدها أو قياس يدعمها[3].

---

[1] أبو العباس المبرد وأثره في علوم العربية: 42.

[2] أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية: 57.

[3] القرآن وأثره في الدراسات النحوية: 97.

ووازن الدكتور مهدي المخزومي بين موقف البصريين وموقف الكوفيين وذلك أن الكوفيين قبلوا القراءات واحتجوا بها واتخذوها شاهداً للكثير من أصولهم وأحكامهم وذلك يغاير موقف البصريين تماماً[1].

وذكرت الدكتورة خديجة الحديثي أن الخليل وسيبويه قد عنيا بالقراءات ولم يخطئا قراءة بل نظرا إلى القراءات نظرة احترام وتقديس لأنّ القراءة سنة وينبغي ألا تخالف[2].

ومن يتتبع نشأة النحو العربي يتبين أن معظم النحويين الأوائل كان لهم اهتمام خاص بالقراءات وكانوا يرجحون قراءة على أخرى إلى أن نصل إلى أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة فضلاً عن أنه كان يرجح قراءة أو يفضلها على غيرها فقد لحن عدداً من القراءات على الرغم من أن بعضها كان لقراء معروفة مكانتهم كابن عامر مقرئ الشام ونافع بن أبي نعيم مقرئ المدينة[3]. وهما من القراء السبعة.

وقبل البحث في موقف المبرد من القراءات ينبغي أن نطرح الأسئلة الآتية:

كيف يمكن تسويغ رفض عدد من البصريين لعدد من القراءات؟ وهل قبل الكوفيون القراءات كلها؟ ألم يشتركوا مع البصريين في رمي عدد من القراء بالوهم وعدم معرفة العربية؟ ألا يمكن تفسير منهج البصريين بأنه منهج يميل إلى اطراد القاعدة وطرح الشاذ حفاظاً على تقريب العربية لدارسيها من العرب وغيرهم؟.

---

(1) مدرسة الكوفة: 341.

(2) دراسات في كتاب سيبويه: 26.

(3) أبو عمرو بن العلاء جهوده في القراءة والنحو، الدكتور زهير زاهد: 12- 129.

وقبل الشروع في الجواب على ذلك ينبغي لنا أن نعرض موقف المبرد من القراءات لنتمكن من خلال ذلك من معرفة حقيقة موقف النحاة من القراءات على نحو واضح ودقيق[1].

المبرد والقراءات:

عني المبرد بالقراءات القرآنية واتخذ منها شاهداً لعدد من القواعد النحوية لكنه لم يكن معنياً بعزو القراءات كثيراً ما يستعمل تعبيرات تدل على عنايته بالقراءة التي قرأها من ذلك قوله: (وقد قرأ بعض القراء) و(على هذا قراءة من قرأ) و(على هذا قرئ) و(فأما القراءة فعلى ضربين) و(على هذا قراءة من قرأ) و(وقراءة بعض الناس)... لكنه عزا بعض القراءات لأصحابها فعزا قراءة للرسول - ص -[2] والخليل[3] والحسن البصري[4] وأبي عمرو بن العلاء[5] وحمزة الزيات[6] ونافع بن أبي نعيم [7]ويعقوب بن إسحاق الحضرمي[8] وعيسى بن عمر[9] وعبد الله بن العباس[10] وأبي رجاء العطاردي[11] ومحمد بن مروان[12].

---

(1) ينظر البحث الموسوم (موقف الفراء من القراءات القرآنية)، مجلة المورد مج 17، ع 4 ص15 وما بعدها. وفيه تم الوقوف على موقف الفراء من القراءات بوصفه علماً بارزاً من أعلام مدرسة الكوفة في النحو.

(2) المقتضب: 2/ 187.

(3) نفسه: 2/ 364.

(4) نفسه: 1/ 283.

(5) نفسه: 1/ 158، 214، والكامل: 1/ 107، 372.

(6) الكامل: 3/ 39 .

(7) المقتضب: 1/ 123.

(8) نفسه: 2/ 134.

(9) الكامل: 1/ 112، 3/ 39.

(10) نفسه: 2/ 85.

(11) نفسه: 1/ 339.

(12) المقتضب: 316/2.

وأغلب الظن أن المبرد كان يعنى بالقراءة ولم ينسبها لأصحابها وهي معظم ما ورد في كتابيه من القراءات.

أما موقفه من القراءات فيمكن أن نصنفه في ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول: قبول القراءات.

الاتجاه الثاني: ترجيح قراءة على أخرى.

الاتجاه الثالث: رد القراءات والطعن فيها.

1- قبول القراءات:

وهو الاتجاه الغالب على موقف المبرد فهو يستشهد بالقراءة من غير ترجيح أو تغليط ويذكر أكثر من وجه في القراءة الواحدة ويعطي تفسيراً لكل وجه بما ينسجم وطبيعة تفكيره النحوي وسأعرض طائفة من القراءات تبين موقفه هذا من ذلك مثلاً:

1- قال المبرد: "فأما القراءة فعلى ضربين: قرأ قوم **(وقالت اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ)** (التوبة: 31) لأنه ابتداء وخبر، فلا يكون في **(عزير)** إلا التنوين. ومن قرأ **(عُزَيرُ ابن اللهِ)** فإنما أراد خبر ابتداء كأنهم قالوا: هو عزير بن الله" [1].

وقراءة التنوين هي قراءة عاصم والكسائي ويعقوب وقرأ الباقون بغير تنوين لكونه لا ينصرف للعجمة والتعريف أو لالتقاء الساكنين[2]. وقد رجح القراء قراءة التنوين على حين أن المبرد يذكر القراءتين ويفسرهما على حد سواء ويعرض أوجه الإعراب التي تأثرت باختلاف القراءة.

---

[1] ينظر في القراءة: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر للدمياطي: 241.

[2] معاني القرآن: 3/ 3000.

2- وقال أيضاً: "وهذه الآية تقرأ على الأوجه الثلاثة وذلك قوله: (**في الظلُمات والظلَمات والظلْمات**)[1] (الأنعام: 39، 132) (الأنبياء:87).

وقراءة تسكين العين في (ظلْمات) في جميع القرآن قرأ بها الحسن البصري ويحيى بن وثاب وكذلك قراءة فتح العين [2]. فالمبرد يذكر أوجه القراءة كلها على الرغم من شذوذ بعضها.

3- وجاء في المقتضب: "وقال: (**يا أهلَ يثْرِبَ لا مَقَامَ لنا**) (الأحزاب: 13) لأنه من قمت موضع قيام ومن قرأ: (**لا مُقَامَ**) إنما يريد إقامة"[3]. فهو يقبل القراءتين من غير ترجيح والقراءتان سبعيتان فقراءة الضم لحفص أما الباقون فقرأوا بالفتح[4]. إما الفراء من الكوفيين فقد رجح قراءة (**مَقام**) بفتح الميم وقال: "والمقام بفتح الميم أجود في العربية"[5]. وقال: "وقرأ بعضهم (**بالغدوة والعشي**) فأدخل الألف واللام على (غدوة) من الآية: (**يدعون ربهم بالغداة والعشي**) (الكهف: 28، الأنعام: 52) فذكر القراءة [6] من غير اعتراض عليها. لكن الفراء أنكر هذه القراءة لأن العرب لا تدخل الألف واللام على غدوة وأن العرب استعملوها منكرة [7].

4- وقال أيضاً: " فأما قراءة الحسن (**صادِ والقرآن**) (ص/1).

---

(1) المقتضب: 2/ 189.

(2) ينظر في القراءة: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: 1/ 80، وشواذ ابن خالويه: 2/ 36.

(3) المقتضب: 2/ 120.

(4) النشر في القراءات العشر، لابن الجوزي: 2/ 384.

(5) معاني القرآن: 3/ 44.

(6) المقتضب: 4/ 354.

(7) معاني القرآن: 2/ 139.

فإنه لم يجعلها حرفاً ولكنه فعل إنما أراد: صاد بالقرآن عملك وهذا تفسير الحسن، أي عارض بالقرآن عملك من قولك صاديت الرجل أي عارضته"[1]. وتنسب هذه القراءة لابن أبي إسحاق وأبي بن كعب ونصر بن عاصم[2] وعلى الرغم من أن هذه القراءة شاذة لكن المبرد يقبلها ويفسرها من غير أن يعترض عليها.

5- وقال أيضاً: "والآية تقرأ على وجهن: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (سبأ: 48) بالنصب والرفع"[3] وقراءة الرفع هي قراءة جمهور القراء أما قراءة النصب فهي قراءة عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق وزيد بن علي وهي من القراءات الشاذة[4] وعلى الرغم من أن في القراءة اختلافاً نحوياً لكن المبرد لا يعترض أو لا يرجح قراءة على أخرى ويذكر وجهي القراءة من غير تعليق.

وهناك نماذج عدة تبين أن المبرد يستشهد بالقراءة بأوجهها المختلفة معطياً تفسيره لكل وجه من غير تفضيل أو طعن[5] وذكر طائفة من القراءات التي تمثل بعض اللهجات العربية القديمة منها لهجة تميم وقيس وأسد وكلها تدخل في اتجاه قبول القراءة وتفسيرها لصالح القاعدة النحوية أو لتأييد استعمال لغوي[6].

---

[1] المقتضب: 1/ 283ـ 284.

[2] ينظر في القراءة: البحر: 383/7، وشواذ ابن خالويه: 129.

[3] المقتضب: 4/ 114.

[4] البحر المحيط: 7/ 292، وشواذ ابن خالويه: 122.

[5] ينظر في ذلك مثلاً: المقتضب: 1/ 159، 181، 2/ 34، 43، 4/ 105، 363، 290، والكامل: 2/ 140 ومواضع أخرى .

[6] ينظر في القراءات التي تمثل اللهجات: المقتضب: 2/ 189، 4/ 105، 413، الكامل: 1/ 339، 2/ 140.

2- الترجيح:

رجح المبرد عدداً من القراءات لأنها أقرب إلى القياس أو إلى الاستعمال الفصيح أو لأنها لقيت قبولاً من سابقيه ونجد ذلك جلياً في موقفه من قراءة أبي عمرو بن العلاء ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ (محمد: 18) فكان أبو عمرو يخفف الهمزة الأولى إذا اجتمعت همزتان في كلمتين ويحقق الهمزة الثانية أما إذا ابتدأ بهمزتين متجاورتين في كلمة والهمزة الأولى للاستفهام فكان يحقق الهمزة الأولى، ويخفف الهمزة الثانيـــة وعلى نهجـــه هذا جاءت قراءته ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ ﴾ (هود: 72) لكل الخليل بن أحمد كان يرى أن تخفف الهمزة الثانية على كل حال ذلك لأن اللفظ يبتدئ بالهمزة الأولى وينبغي أن تحقق لذلك وقد رجح المبرد رأي الخليل وقال: " وقول الخليل أقيس وأكثر النحويين عليه"[(1)].

- وتعرض المبرد لقراءة أبي عمرو بن العلاء في مجال الإدغام إذ مال إلى إدغام لام (هل) و(بل) فيما بعدهما وقرأ:(بتّؤثرون) في قوله تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ﴾ (الأعلى: 16) وقرأ أبو عمرو: (هثّوبَ الكفارُ) في قوله تعالى: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ ﴾ (هل ثوب الكفار) (المطففين: 36) وعزيت قراءة الإدغام لحمزة الزيات والكسائي[(2)] فساوى المبرد أول الأمر بين لإدغام والإظهار ومال إلى الإظهار فقال: " وهو عندي لتراخي المخرجين"[(3)].

---

(1) المقتضب: 1/ 158 ــ 159، وينظر: الكتاب: 3/ 548 ــ 549.

وينظر في القراءة: السبعة في القراءات: 134ــ 135، وينظر مفصل قراءة أبي عمرو في: أبو عمرو بن العلاء جهوده في القراءة والنحو: 63 ــ 64.

(2) النشر: 2/ 76، والإتحاف: 431.

(3) المقتضب: 1/ 214.

– وفي مجال ترجيحه لقراءة إظهار النون مع أصوات الحلق وذلك في أجود القراءتين على رأيه قراءة: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ (الملك: 14) لأنها تظهر النون عند مجاورتها للخاء وقد قرأ قالون بإدغام النون مع الخاء والغين في جميع القرآن[1] ولذلك قال المبرد: " وهذا عندي لا يجوز ولا يكون أبداً مع حروف الحلق إلا الإظهار"[2] وقال قبل ذلك: "وإنما قلت أجود القراءتين لأن قوماً يجيزون إخفاءها مع الخاء والغين خاصة لأنهما أقرب حروف الحلق إلى الفم"[3]. فهو يتردد في موقفه مع هذه القراءة بين الترجيح والرفض.

– وفي باب الجزاء ذكر المبرد أن المعطوف على فعل الشرط ينبغي له أن يكون مجزوماً وأجاز فيه الرفع على سبيل القطع وأجاز فيه النصب وإن كان قبيحاً[4] واستشهد لذلك بقراءة: (**يحاسبْكم به اللهُ فَيَغْفِرْ لمن يشاءُ**) (البقرة: 284) وذكر أنها قرئت على ثلاثة أضرب بالجزم والرفع والنصب. وعزيت قراءة الرفع في (**فيغفرْ**) إلى ابن عباس والأعرج[5]. فالمبرد يذكر أوجه القراءة المختلفة في الآية ثم أقربها إلى القياس وأجودها في الاستعمال فعدّ قراءة الجزم أجودها ثم قراءة الرفع فالنصب[6].

– وذهب إلى أن ياء المتكلم حينما تقع مضافاً إليها ينبغي لها أن تحذف في النداء ويجوز أن تثبت واستشهد لإثباتها بقراءة: (**يا عبادي فاتقون**) (الزمر: 16)

---

[1] المقتضب: 1/ 214.
[2] نفسه: 1/ 214.
[3] نفسه: 1/ 214.
[4] نفسه: 1/ 214.
[5] نفسه: 1/ 214.
[6] نفسه: 1/ 214.

وهي قراءة رويس [1] وعزا سيبويه هذه القراءة إلى أبي عمرو بن العلاء وذكر أن: "بقيان الياء لغة في النداء في الوقف والوصل"[2]. والمبرد لم يخطئ القراءة الثانية لكنه رجح القراءة بحذف الياء عليها[3].

- وعقب على ما جاء في مصحف بن مسعود: **(ودوا لو تدهن فيدهنوا)** (القلم: 9) بقوله: "والقراءة: (فيدهنون) على العطف وفي الكلام: ود لو تأتيه فتحدثه "فهو يرجح قراءة العطف على قراءة النصب مستعيناً بمثل من كلام العرب لكنه يجيز القراءة بالنصب فيقول: "وإن شئت نصبت الثاني"[4].

3- رد القراءات والطعن فيها:

- رد المبرد قراءة سعيد بن جبير **(وإنه تعالى جدا ربنا)** (الجن: 3) وذلك لكونها خالفت الرسم القرآني إذ ورد في القرآن: ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ فقال المبرد "قرأ قارئ (جدا ربنا) على معنى (جد ربنا) لم يقرأ به لتغير الخط وكذا قراءة سعيد مخالفة الخط" [5].

- وقرأ جمهور القراء برفع (آيات) من قوله تعالى ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الجاثية: 4).

---

(1) النشر: 2/ 180 .

(2) الكتاب: 2/ 209 ـ 210.

(3) المقتضب: 4/247.

(4) الكامل: 3/ 349.

وهنالك أمثلة أخرى تبين موقف الترجيح، ينظر في ذلك: الكامل: 2/ 266، والمقتضب: 2/ 185، 314.

(5) الكامل: 3/ 136.

وقد قرأ الأعمش والجحدري وحمزة ويعقوب بالنصب[1]. وعقب المبرد على قراءة النصب بقوله: "وقد قرأ بعض القراء وليس بجائز عندنا (واختلاف... آيات) فجعل (آيات) في موضع نصب وخفضها لتاء الجمع فحملها على (أن) وعطفها بالواو وعطف (اختلاف) على (في) ولا أراه في القرآن جائزاً لأنه ليس بموضع ضرورة"[2].

وسبب رفض المبرد قراءة النصب هو عدم جواز العطف على معمولي عاملين ذلك لأنّ قراءة النصب تؤول على النحو الآتي: **(وأن في تصريف الرياح آيات لقوم يعقلون)** فقد عطف على معمولي عاملين هما (أن) وحرف الجر (في) وذلك مما يرفضه المبرد[3].

– ومما وصفه باللحن من القراءات متأثراً بآراء سابقيه قراءة: **(هؤلاءِ بناتي هُنَّ أطهرَ لكم)** (هود: 78) بنصب (أطهر) فقال فيها: "أما قراءة أهل المدينة... فهو لحن فاحش وإنما هي قراءة ابن مروان ولم يكن له علم بالعربية"[4] ولم تكن هذه قراءة محمد بن مروان فحسب لكنها قراءة الحسن البصري وزيد بن علي وعيسى بن عمر وسعيد بن جبير[5]. ونقل أبو حيان ما رواه يونس بن حبيب عن أبي عمرو بن العلاء قوله: "احتبى ابن مروان في هذا في اللحن" وعزا أبو حيان تلحين القراءة لسيبويه لكن الثابت أن سيبويه لم يلحن القراءة في كتابه[6].

---

(1) البحر: 8/ 42، والنشر: 2/ 371.

(2) الكامل: 1/ 287، وذكر الموقف في المقتضب: 4/ 195.

(3) ينظر: تفسير ابن هشام لذلك في المغني: 2/ 486.

(4) المقتضب: 4/ 105.

(5) ينظر في القراءة: البحر المحيط: 5/ 247 وفيه: رويت هذه القراءة عن مروان بن الحكم.

(6) البحر المحيط: 5/ 247، وينظر: الكتاب: 2/ 396 – 397، وجاء في الكتاب: (ذه) مكان (هذه) وإعراب القرآن للنحاس: 2/ 104.

وفضل المبرد قراءة الرفع في (أطهر) لأنها خبر للمبتدأ (هن) ولا يصح عنده أن تكون (هن) ضمير فصل ونصب (أطهر) على سبيل الحال وهو في ذلك يحذو حذو الخليل وسيبويه والأخفش[1].

وَرَدَّ المبرد قراءة اتفق عليها القراء السبعة وهي ﴿ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ (النساء: 90) وقال يفسر هذه القراءة أول مرة: "وليس الأمر عندنا كما قالوا ولكن مخرجها ــ والله أعلم إذا قرئت كذا ــ الدعاء كما تقول: لعنوا قطعت أيديهم. وهو من الله إيجاب عليهم فأما القراءة الصحيحة فإنما هي: (أو جاؤكم حصرة صدورهم)"[2] وعزيت هذه القراءة ليعقوب من القراء العشرة[3]. ووجّه المبرد القراءة الأولى ثم عد القراءة الثانية هي الصحيحة جرأة منه للطعن في قراءة اتفق عليها[4].

– وردّ المبرد قراءة أبي عمرو وأهل المدينة: **(وأنه أهلك عاداً لّولى)** (النجم: 50) موصولة مدغمة وقال في ذلك: "ما علمت أن أبا عمرو لحن في صميم العربية في شيء من القرآن إلا في: **(يؤدهْ إليك)** (آل عمران: 75) وفي (وأنه أهلك عاداً الأولى) [5]. على حين قرأ ابن كثير وعاصم وابن عمرو وحمزة والكسائي (عاداً الأولى) منونة. وسبب رفض المبرد هذه القراءة يعود إلى عدم جواز إدغام التنوين وهو ساكن واللام ساكن فكأنه جمع بين ساكنين[6]. وقد قبلها الزجاج[7] وعدها لهجة[8] وكذا فعل الفراء[9].

---

(1) إعراب القرآن: 2/ 104.

(2) المقتضب: 4/ 124– 125.

(3) النشر: 2/ 251.

(4) ينظر: المقتضب: 125/4.

(5) إعراب القرآن: 3/ 276 – 277.

(6) ينظر في السبعة: 615.

(7) إعراب القرآن: 3/ 277.

(8) نفسه والصفحة نفسها.

(9) معاني القرآن للفراء: 3/ 102.

– وطعن المبرد في قراءة أبي عمرو في اختلاس الحركة لكونه كان يميل إلى التخفيف والسرعة في النطق فروى عن أبي عمرو **(يشعرْكم)** و**(يعلمْهم)** و**(يأمرْكم)**[1]، وفسّر الفراء هذا النهج في القراءة تفسيراً صوتياً يهدف إلى التخفيف منن الحركات إذا توالت[2].

وقد عرف هذا النهج في النطق في قبائل تميم وأسد[3] بوصفه ظاهرة لهجية وفسرها سيبويه أنها إسراع في اللفظ[4].

لكن المبرد يطعن في هذه القراءة ويقول: "إنه لا يجوز في كلام ولا شعر لأنها حرف إعراب"[5].

– ورد قراءة الهمزة (معائش) من قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ﴾ (الأعراف: 10) فقال: " فأما قراءة من قرأ (معائش) فهمز فإنه غلط وإنما هذه القراءة منسوبة إلى نافع بن أبي نعيم ولم يكن له علم بالعربية وله في القرآن حروف قد وقف عليها"[6].

ويظهر أن المبرد كان متأثراً بشيخه المازني إذ قال في تصريفه: "فأما قراءة من قرأ من أهل المدينة (معائش) بالهمز فهي خطأ فلا يلتفت إليها وإنما أخذت عن نافع بن أبي نعيم ولم يكن يدري ما العربية وله أحرف يقرأها لحناً نحواً

---

(1) النشر: 2/ 213، والسبعة: 155 ــ 156.
(2) معاني القرآن: 2/ 12.
(3) النشر: 2/ 213.
(4) الكتاب: 4/ 202.
(5) إعراب القرآن: 1/ 176 و 2/ 703.
(6) المقتضب: 1/ 123.

من هذا وقد قالت العرب (مصائب فهمزوا وهو غلط) [1] ورفض المبرد قراءة نافع لأنه همز الياء وهي ليست زائدة فمتى ما كانت الياء زائدة صح أن تهمز كما في صحائف ومدائن ذلك لأن جمع معيشة معايش وهي قراءة السبعة عدا نافع بن أبي نعيم[2].

وقد سبقه الفراء في اعتراضه على همز (معايش) فقال: " لا تهمز لأنها – يعني الواحدة – مفعلة الياء من الفعل فلذلك لم تهمز إنما يهمز من هذا ما كانت الياء فيه زائدة مثل مدينة ومدائن وقبيلة وقبائل"[3].

وعد الفراء همز معايش ونحوه مما توهمت فيه العرب لشبهها بالوزن في اللفظ وعدة الحروف.

وقال أيضاً: "وقد همزت العرب المصائب وواحدتها مصيبة شبهت بفعيلة لكثرتها في الكلام"[4] ولعل هذه القراءة تدخل في مجال همز ما لم يهمز. وهي ظاهرة لهجية معروفة في قبائل تميم وقيس وغيرهما[5] ويرى بروكلمان أن هذه الظاهرة عرفتها اللغة السامية الأم وبقيت آثارها في العربية القديمة ولهجاتها[6].

– وَرَدَّ المبرد قراءة حمزة: (**واتقوا الله الذي تسألون به والأرحامِ**) (النساء: 1) وذلك لكونه عطف (الأرحام) وهو اسم ظاهر على الضمير في (الهاء) المجرور وقال المبرد: " وهذا مما لا يجوز عندنا إلا أن يضطر إليه شاعر "وذكر قول الشاعر[7]:

---

(1) التصريف: 1/ 307، وينظر في القراءة: شواذ ابن خالويه: 42.

(2) الإتحاف: 222.

(3) معاني القرآن: 2/ 373.

(4) نفسه: 2/ 374.

(5) الكتاب: 3/ 179.

(6) فقه اللغات السامية: 41.

(7) الكامل: 3/ 39، وإعراب القرآن: 1/ 390، وشرح المفصل: 3/ 78.

فاليومَ قَربــت تهجونـــا وتشــتمنا فاذهبْ فما بك والإيام من عجب"[1]

والقراءة بخفض الأرحام هي قراءة عبد الله بن عباس وقتادة وإبراهيم النخعي والأعمش والحسن البصري ويحيى بن وثاب وطلحة بن مصرف وقرأ الباقون بنصب (الأرحام) عطفاً على لفظ الجلالة[2].

والذي يهدف إليه المبرد من اعتراضه على هذه القراءة هو السعي لأن تطرد القاعدة النحوية. فالشائع في الاستعمال هو عطف الاسم الظاهر على الاسم الظاهر أما عطف الاسم الظاهر على الضمير فذلك قليل وشاذ لا يصح جوازه ولا النسج على منواله لكونه يمثل منحى غير فصيح فلأجل أن تطّرد القاعدة وقف المبرد وغيره هذا الموقف الذي يسعى إلى تشذيب القواعد مما هو شاذ وغريب في الاستعمال.

- وعدّ المبرد قراءة (**ثُمَّ لْـيَقْطَعْ فلْـيَنْظُرْ**) (الحج: 15) لحناً وقال: "فإن الإسكان في لام (فلْينظر) جيد وفي لام (ليقطع) لحن لأنّ (ثم) مُنْفصِلة في الكلمة وقد قرأ بذلك يعقوب بن إسحاق الحضرمي"[3].

وعزيت هذه القراءة إلى القراء السبعة إلا أبا عمرو بن العلاء وابن عامر فضلاً عن يعقوب بن إسحاق الحضرمي من القراء العشرة[4] ويعود رفض المبرد إلى أن المطرد في الاستعمال تسكين لام الأمر إذا سبقت بالواو أو الفاء أما إذا سبقت بـــ(ثم) فلا يصح أن تسكن بل تحرك بالكسر ذلك لأن (ثم) كلمة مستقلة عن

---

(1) الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس المبرد: 3/ 39.

(2) ينظر في القراءة: السبعة في القراءات: 226، وإعراب القرآن: 1/ 39، والإتحاف: 185.

(3) المقتضب: 2/ 134.

(4) ينظر القراءة في: النشر: 2/ 326، والإتحاف: 314.

لام الأمر غير ملتصقة بها وهو في هذه القراءة كدأبه في القراءات الأخرى التي رأى فيها خروجاً على الشائع في الاستعمال وشذوذاً لا ينسجم مع القياس.

- ورفض المبرد قراءة أخرى فقال " وقد قرأ بعض القراء بالإضافة فقال (**ثلاثمائة سنين**) (الكهف: 25) وهذا خطأ في الكلام غير جائز وإنما يجوز مثله في الشعر للضرورة وجوازه في الشعر أنا نحمله على المعنى لأنه في المعنى جماعة وقد جاز في الشعر أن تفرد وأنت تريد الجماعة وإذا كان في الكلام دليل على الجمع"[1]. وعزيت هذا القراءة إلى حمزة والكسائي وخلف والحسن البصري وطلحة والأعمش وآخرين[2].

وقد ذكر أبو حيان أن هذه القراءة ردّها أبو حاتم السجستاني: "ولا يجوز له ذلك"[3] ويتبين لنا أن المبرد يحذو حذو أبي حاتم فيرفض هذه القراءة ذلك لأن التمييز المضاف إليه ينبغي له أن يكون بصورة المفرد مع العدد ثلاث مئة وذلك هو المطرد في قاعدة العدد أما أن يكون بصورة الجمع فهو مخالف لها.

وعلى الرغم من نهج المبرد المتشدد إزاء هذه القراءات لكنه كان حريصاً على أن تحفظ العربية بقواعد ثابتة لا يكتنفها الاضطراب والخلل فما جاء في الفصحى في مصادرها كلها سواء أكان في القرآن أم في الشعر أم ي كلام العرب فهو الأصل الذي يعتمد عليه في القياس وما سوى ذلك فهو من قبيل الاستعمال النادر الذي لا تصح القراءة عليه.

وبعد عرض موقف المبرد من القراءات يمكن القول إنه لم يعترض على القراءات جميعها لكنه قبل طائفة منها واستشهد بها بوصفها مصدراً من مصادره.

---

(1) المقتضب: 2/ 171.

(2) ينظر القراءة في: النشر: 2/ 310، والبحر المحيط: 6/ 117، والإتحاف: 289.

(3) البحر المحيط: 6/ 117.

أما اعتراضه على عدد من القراءات فقليل بالموازنة مع ما قبله منها فهو بذلك لا يمثل سمة من سمات منهجه بقدر ما يبين اجتهاده وموقفه الخاص به سواء أ كان متأثراً بشيخوخه أم هو منهجه الثابت في وضع قواعد شاملة تصلح لكل زمان ومكان بغية ضبط اللغة لا للعرب فحسب بل لغير العرب من الموالي ومن الأقوام التي دخلت الإسلام.

وإذا ما عد بعض الدارسين تشدد البصريين في القراءات سمة تعكس طبيعة مدرسة البصرة فإن هذه السمة موجودة عند بعض الكوفيين وبخاصة الفراء فقد خطأ بعض القراءات ورمى أصحابها باللحن تارة وبالوهم تارة أخرى ومن اجل ألا يفتعل الخلاف بين النحويين من البصريين والكوفيين ولذلك ينبغي عد موقف النحويين من القراءات موقفاً فردياً يعتمد على اجتهاد هذا النحوي أو ذلك في مسائل اللغة والنحو وحجب هذه المسألة عن ميدان الخلاف يرمي إلى التقليل من شأن حدة ما ينسب من الخلافات بين البصريين والكوفيين.

المصادر والمراجع

1. أبو عمرو بن العلاء جهوده في القراءة والنحو، للدكتور زهير غازي زاهد، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، مط جامعة البصرة، 1987.

2. إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، للشيخ أحمد بن محمد الدمياطي، دار الندوة الجديدة، بيروت ـ لبنان. رواه وصححه وعلق عليه علي محمد الضباع.

3. أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية، د. عبد العال سالم مكرم، مط العصرية، ط الثانية، الكويت، 1978م.

4. إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس، تح: د. زهير غازي زاهد، مط العاني، ط الأولى، بغداد، 1979م.

5. البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، ط الثانية، دار الفكر، بيروت، 1978.

6. التصريف للمازني شرح ابن جني، تح إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، ط الأولى، مط، مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1954.

7. دراسات في كتاب سيبويه، للدكتورة خديجة الحديثي، وكالة المطبوعات، الكويت، 1980م.

8. السبعة في القراءات، لأبي بكر أحمد بن مجاهد، تح الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، 1968.

9. شرح المفصل لابن يعيش، ط مصورة عالم الكتب، بيروت.

10. فقه اللغات السامية، كاول بروكلمان، ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب، جامعة الرياض، 1977.

11. القرآن وأثره في الدراسات النحوية، للدكتور عبد العال سالم مكرم، دار المعارف بمصر، القاهر، 1965.

12. الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، مط دار النهضة، مصر.

13. الكتاب لسيبويه، تح عبد السلام هارون، الهيأة المصرية العامة للتأليف والنشر، ط1، القاهرة.

14. لهجة قبيلة أسد، علي ناصر غالب، دار الشؤون الثقافية العامة، ط الأولى، بغداد، 1989 .

15. مختصر في شواذ القراءات، لابن خالويه، نشر: ج. براغشتراسر، ط.دار الهجرة.

16. مدرسة الكوفة، للدكتور مهدي المخزومي، ط الثانية، مط البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1958.

17. المقتضب، لأبي العباس المبرد، تح محمد عبد الخالق عضيمة، ط الأولى، القاهرة، 1385 هـ ـ 1388 هـ.

18. معاني القرآن، للفراء، تح د. أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار الفكر، ط الخامسة، بيروت، 1979.

19. النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، دمشق، 1345هـ.

الفصل الثالث

اللهجات العربية في كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي

الفصل الثالث

اللهجات العربية في كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي(*)

تعد المعاجم العربية من المصادر المهمة لدراسة اللهجات العربية القديمة فقد جاء في ضمن مادتها طائفة من النصوص اللهجية التي تيسر دراسة تلك اللهجات وتكشف عن خصائصها وصلتها بغيرها وأثرها في رفد العربية الفصحى.

وكتاب العين من أقدم المعاجم العربية التي نظمت بطريقة علمية وهو يجسد من غير شك عبقرية الخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) فضلاً عن أن مادته العلمية يجدها الباحث مبثوثة في معظم المعاجم التي أُلِّفت بعده وكونت مصدراً رئيساً من مصادر المتقدمين والمتأخرين على حد سواء.

وقد بذل الخليل جهداً كبيراً في رواية اللهجات لكن طريقته في روايتها كانت مضطربة بسبب من تعدد اللهجات وسعة اللغة العربية واختلاف أمصارها وإذا كنا نجده ينسب طائفة من النصوص اللهجية إلى الناطقين بها في مواضع فإننا نجده في مواضع أخرى يغفل نسبة ما يثبته من اللهجات ولو أثبت ذلك لأمكن أن يعطي صورة واضحة تمثل الواقع اللهجي السائد في الجزيرة العربية آنذاك ولأمكن الكشف عن خصائص عدد من خصائص اللهجات العربية القديمة تعين على دراسة تاريخ العربية وتطورها عبر القرون وقد سار على نهجه عدد من علماء العربية فذكروا الظواهر اللهجية في أحيان كثيرة من غير عزو لأصحابها. ولم يعن الخليل

(*) بحث منشور في مجلة الخليج العربي، تصدر عن مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، العراق، السنة الثامنة والعشرون، المجلد الثلاثون، العدد 1- 2) سنة 2000م.

برواية اللهجات العربية ونسبتها إلى القبائل فحسب لكنه عني برواية لهجات الأمصار فذكـر لهجـات اليمن وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل العراق وأهل الكوفة والطائف وغيرها وقد وقف المحدثون إزاء النصوص اللهجية التي عزيت إلى الأمصار وقفة المتردد في اعتمادها لدراسة اللهجات العربية القديمة لأسباب منها:

1- إن بعض تلك المصادر كان يقطنها أقوام من غير العرب ولا سيما بعد نزوح العرب إليها إبان الفتوحات الإسلامية.

2- إن العرب الذي قطنوها كانوا من قبائل مختلفة لذا ينبغي لمن يتصدى لدراسة اللهجات في ضوء واقعها الجغرافي أن يكون متريثاً حتى يتبين الواقع السكاني السائد في أي مصر من الأمصار.

ولعل الخليل كان يروم الدقة في النقل عمن سمع فما سمعه ووثق به عزاه وما لم يسمعه تركه من غير عزو. وفي أثناء عرضه للمادة العلمية التي جمعها كان يعنى بذكر طائفة من الألفاظ غير العربية كالسريانية والعبرية والنبطية والفارسية وغيرها مما يؤلف مجالاً آخر من مجالات البحث في كتاب العين. ولذا اقتصر البحث على اللهجات العربية التي ذكرها الخليل في أثناء كتاب العين الذي كان المعين الأساس في هذا البحث.

موقف الخليل من اللهجات:

استعمل اللغويون القدماء من بينهم الخليل مصطلح (لغة) للدلالة على مصطلح (اللهجة) فحينما يقول لغة تميم كان يعني لهجة تميم وكذا الأمر في لهجات الأمصار واستعمال بعضهم مصطلح (اللحن) للدلالة على مفهوم اللهجة في علم اللغة الحديث[1]. ولكن المصطلح الشائع في كتاب العين هو اللغة بمعنى اللهجة.

---

(1) في اللهجات العربية للدكتور إبراهيم أنيس: 16.

وكان من وكد الخليل وهو يروي اللغة ولهجاتها أن يفرق بين مستويين أو أكثر من مجالات الاستعمال اللغوي فما كان شائعاً في الاستعمال وتسنده النصوص المأثورة عده فصيحاً على سبيل الانتقاء والمفاضلة.

من ذلك قوله "للعرب في حيث لغتان واللغة العالية حيثُ الثاء مضمومة وهو أداة للرفع يرفع الاسم بعده ولغة أخرى حوث عن العرب لبني تميم"[1] وقال: "والصوم مَصَحة ومصِحة ونصب الصاد أعلى من الكسر"[2] وقال "الطعام اسم جامع لكل ما يؤكل وكذلك الشراب لكل ما يشرب والعالي في كلام العرب أن الطعام هو البر خاصة ويقال اسم له وللخبز والمخبوز"[3] ومن هذه النصوص يتبين لنا أن الخليل يفرق بين أكثر من مستوى من الاستعمال اللغوي ولا شك أنه يعني باللغة العالية أو العالي في كلام العرب العربية الموحدة الشائعة في الاستعمال مألوفة لدى العرب جميعهم وأما سواها فهو من قبيل اللهجات التي تعد المستوى الثاني في مجال الاستعمال اللغوي. وهذه الثنائية في الاستعمال شخصها الخليل بذهنه الثاقب وهو لا يختلف عما ذهب إليه المحدثون بصدد الواقع اللغوي للعربية بوصفها تمثل مستويين هما مستوى العربية الفصحى ومستوى اللهجات الذي انعكس على الشعر العربي إذ احتفظ بطائفة من الظواهر اللهجية التي تمثل عدم قدرة الشاعر على التخلص من لهجة قبيلته والنظم بالعربية الفصحى فضلاً عما طمسه الرواة من فروق كثيرة بين اللهجات العربية في أثناء روايتهم للشعر العربي القديم[4].

---

[1] العين: 3/ 285.

[2] نفسه: 3/ 14.

[3] نفسه: 2/ 25.

[4] الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة للدكتور هاشم الطعان.

واستعمل الخليل مصطلح (لغة قبيحة) و(لغة رديئة) ليبين أن هذه اللهجة محدودة وليست شائعة ولا ينبغي الاعتداد بها لوجود ما هو أفضل في العربية الموحدة فكان ينحو بذلك إلى تمييز الفصيح من الرديء سعياً إلى تنقية اللغة من الشواذ.

فيقال "طَفِقَ وطَفَقَ لغة رديئة أي جعل يفعل وهو مثل ظل وبات وما يجمعهما"[1].

وقال: "النِّصفُ، أحد جزأي الكمال، والنُّصفُ لغة رديئة"[2] وقال أيضاً: "ورابني هذا الأمر يريبني أي ادخل علي شكاً وخوفاً وفي لغة رديئة أرابني"[3].

وقال: "أفلطني في لغة تميم بمعنى أفلتني وهي قبيحة"[4] ولم يفسر الخليل في معظم ما عده قبيحاً أو رديئاً وجه القبح أو الرداءة لكن من الواضح أن مخالفة العربية الفصحى سواء في إبدال صوت بصوت آخر أم اختلاف في الصيغة هو المعنى الذي يعنيه في هذا الشأن وهو يهدف بهذا الضرب من التمييز إلى استبعاد ما سوى الفصيح عن اللغة العربية المنتقاة.

وفي العين طائفة من النصوص تبين هذا المنحى الذي نحاه الخليل في تمييزه بين مستويين أو أكثر من مجالات الاستعمال اللغوي[5]. لكن الخليل ينهج نهجاً آخر في روايته للنصوص اللهجية إذ يقوم برواية لهجات عدة من غير مفاضلة وكأنها متساوية في فصاحتها وهي في الاستعمال على حد سواء.

---

(1) العين: 5/ 106.

(2) نفسه: 7/ 132.

(3) نفسه: 8/ 288.

(4) نفسه: 7/ 430.

(5) ينظر في ذلك مثلاً: 2/ 212، 8/ 321.

قال: "النُّخاع والنِّخاع والنَّخاع ثلاث لغات عرق مستبطن في فِقار العنق متصل بالدِّماغ"[1].

وقال: "بسق وبصق وبزق لغات"[2].

وقال "الدِّرهَم والدِّرهِم لغتان"[3].

وقال: "الغماض النوم يقال: ما ذقتُ غُمْضاً ولا غِماضاً وما غَمضتُ ولا أغْمضتُ ولا اغتَمضْتُ لغات"[4].

ومال الخليل إلى تخطيء بعض الظواهر اللهجية التي انتشرت بين القائل المعروفة بفصاحتها وذلك في ميلها إلى تحقيق الهمز وهي قبائل تميم وأسد وقيس[5].

قال: "وحليت السويق ومن العرب من همزة فقال: حلأت السويق وهذا غلط" وقد اتسع بعض اللغويين في هذا المنحى عرفوا بالمتشددين ممن درجوا على تخطئة طائفة من الاستعمالات اللغوية على الرغم من روايتها عن العرب الفصحاء منهم الأصمعي وأبو حاتم السجستاني فقد عرف عن الأصمعي "ولعه بالجيد المشهور ويضيق فيما سواه"[6] .

---

(1) العين: 1/ 121.

(2) نفسه: 5/ 85.

(3) نفسه: 4/ 125.

(4) نفسه: 4/ 370.

(5) الكتاب: 4/179.

(6) فعلت وأفعلت لأبي حاتم السجستاني: 88.

لهجات القبائل في كتاب العين:

ليس من اليسير الحكم بأنّ الخليل كان معنياً برواية اللهجات قدر عنايته بوضع ضوابط يحصر بها مفردات اللغة العربية وجذورها ولعل ما رواه من نصوص لهجية إنما كان يهدف به إلى أن يستكمل عمله اللغوي الصعب فضلاً عن ذلك فقد عنيت طائفة من اللغويين باللهجات العربية القديمة وألفت مجموعة من الكتب والرسائل تحت عنوان (اللغات) أو (لغات القرآن)[1] زيادة على تأليفهم الكثير من كتب النوادر التي لها صلة وثيقة بكتب اللغات[2]. على أن الكثير من النصوص اللهجية نجده متناثراً في كتب اللغة وكتب إعراب القرآن وتفسيره لما له من صلة حميمة بموضوع تلك الكتب التي تعد في ضمن مصادر اللهجات وكتاب العين واحد من تلك الكتب التي لم تتخصص في رواية اللهجات فحسب لكنها شملت طائفة من النصوص المأثورة من الذكر الحكيم والقراءات والشعر العربي وشواهد أخرى. ومن خلال النصوص التي عزاها الخليل إلى القبائل أمكن وضع الكشف الآتي:

اسم القبيلة	عدد النصوص المعزوة إليها
تميم	25
هذيل	25
ربيعة	6
طيء	6
الأزد	3
قيس	3

(1) الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة: 146.

(2) اللهجات العربية في التراث: 1/ 157.

اسم القبيلة	عدد النصوص المعزوة إليها
بنو الحارث بن كعب	2
أسد	1
بنو سعد	1
بنو عدي	1
تغلب	1
جهينة	1

ومن هذا الكشف يتبين لنا أنّ أكثر القبائل التي عزا إليها الخليل نصوصاً لهجية هما قبيلتا تميم وهذيل ثم قبائل ربيعة وطيء ولم يذكر لقبيلتي قيس وأسد على امتداد مواطنهما وتعدد بطونهما غير نصين لقيس ونص واحد لأسد ومرجع ذلك هو أن الخليل قد أغفل عدداً كبيراً من النصوص وتركها من غير أن يعزوها لأصحابها وإذا ما أردنا التثبت من صحةِ مقولة الفارابي فيما بعد التي حدد فيها القبائل الفصيحة التي كانت مصدر اللغويين زمان جمع اللغة إذ قال: "... فتعلموا لغتهم والفصيح منها من سكان البراري منهم دون أهل الحضر ثم من سكان البراري من كان في أوسط بلادهم ومن أشدهم توحشاً وجفاء وأبعدهم إذعانا وانقياداً وهم قيس وتميم وأسد وطيء ثم هذيل فإن هؤلاء معظم من نقل عنه لسان العرب"[1]، سيظهر لنا أن الخليل لم ينهج في عمله منهجاً يتفق وما ذهب إليه الفارابي فيما بعد فهو لم يعن بلهجات القبائل على حد سواء ولم يلتزم بالتحديد الجغرافي الذي وضعه الفارابي فذكر نصوصاً لقبائل من خارج تلك الدائرة ولو ذكر الخليل النصوص اللهجية جميعها معزوة لأمكن الوقوف على الواقع اللهجي

---

[1] الحروف: 147، ونقل السيوطي ذلك بتصرف في المزهر: 1/ 211، والاقتراح /: 56.

السائد آنذاك بدقة أكبر وانطلاقاً من هذا الأساس يمكن القول إن الخليل لم يكن من وكده عزو الخصائص اللهجية لكثرة النصوص التي أغفل عزوها فضلاً عن ذلك فإن استقراءه للغة للعربية ولهجاتها كان ناقصاً وهذا أمر طبيعي إذ ليس من السهل على فرد واحد القيام بحصر اللغة ولهجاتها حتى لو أوتي عبقرية الخليل وذكاءه.

ولا شك في أن هناك صلة واضحة بين رحلة الخليل على سبيل جمع اللغة وبين القبائل التي أكثر من عزو النصوص اللهجية إليها فما رواه عن تميم كان أكثر مما رواه عن قيس وذلك يعني أنه عايش تميماً أكثر مما عايش قبيلة قيس أو أسد وأنه كان على بينة من لهجات بعض القبائل دون غيرها.

لهجات الأمصار في كتاب العين:

إذا ما عقدنا موازنة بين النصوص اللهجية التي عزيت في كتاب العين يتبين لنا أن ما عزي إلى الأمصار كان أكثر مما عزي إلى القبائل وذلك يتضح من خلال الكشف الآتي:

اسم المصر	عدد النصوص المعزوة إليه
أهل اليمن	32
أهل الحجاز	17
أهل العراق	9
أهل السواد	9
أهل الجوف من اليمن	5
أهل البصرة	10
أهل الشام	7
أهل المدينة	5
أهل مصر	4

اسم المصر	عدد النصوص المعزوة إليه
أهل الغور	4
عمان	4
أهل الشجر	4
الحيرة	3
أهل مكة	2
أهل الطائف	2
أهل الكوفة	1
تهامة	1
أهل حمص	1
افريقية	1
أهل الجزيرة	1
بغداد	1
أهل الصمان	1
بيشة	1

وعلى سعة الأمصار التي ورد ذكرها يمكن لقول إن الخليل لم يصل إلى معظمها كالشام ومصر وافريقية التي يعني بها شمال أفريقية[1] وتونس بشكل خاص وما نقله يعتمد على مجموعة من الرواة الذين نقلوا له طائفة من الألفاظ التي لها دلالة خاصة أو غير مألوفة فضلاً عن أن مضمون المادة اللهجية التي عزاها للأمصار كان في معظمه في مجال دلالة الألفاظ.

[1] وهي تونس وما صاقبها، ينظر: معجم البلدان: 1/ 324.

ويتبين لنا من خلال الكشف السابق اعتداد الخليل بلهجات اليمن وأرجائها فما عزاه من خصائص لغوية لليمن يزيد على ثلث ما رواه من لجهات الأمصار وهذا الأمر من الأمور التي ترجح أن يكون كتاب العين للخليل لا لغيره كما يذهب بعض الدارسين وذلك لكونه ينتمي إلى قبيلة الأزد وهي من أكثر قبائل اليمن انتشاراً. ويمكن القول إنه ليس من اليسير اعتماد هذه النصوص في دراسة اللهجات العربية القديمة وذلك لوجود عدة قبائل في كل مصر من الأمصار ولا يوجد ما يوضح أية صلة بين الظاهرة اللهجية وأصحابها فضلاً عن ذلك فإن منهج دراسة اللهجات يسعى إلى تحديد المكان والزمان الذي عاشت فيه اللهجة اعتماداً على العزلة الجغرافية بين القبائل السائدة آنذاك وموطنها الذي عرفت فيه.

مضمون النصوص اللهجية في كتاب العين:

أما فيما يتعلق بمضمون النصوص اللهجية التي وردت في كتاب العين فينخرط في مجال الأصوات ودلالة الألفاظ والصرف أما في مجال النحو فلم يعن الخليل به وذلك نابع من طبيعة الكتاب بوصفه معجماً وما ورد من نصوص فيه فهو قليل يخص معظمه الأدوات النحوية لذلك فسوف اقصر البحث على المجالات الأخرى.

مجال الأصوات:

نال هذا المجال حيزاً كبيراً مما رواه الخليل من نصوص لهجية وذلك أمر طبيعي لأنّ اختلاف اللهجات في مجال الأصوات يعد من أبرز مجالات الاختلاف بينها.

ومن الظواهر الصوتية الإبدال بين الأصوات الصامتة والإدغام والهمز والمماثلة والمعاقبة والتناوب بين أصوات المد القصيرة، لكن الخليل لم يلجأ إلى تفسير الظواهر جميعها فكان يذكرها أغلب الأحيان من غير تعليق، أما في الكتاب

فقد ذكر سيبويه في أكثر من موضع تفسير الظواهر الصوتية ولا شك أنه نقله عن الخليل وذلك في معرض الإبدال الذي يحدث بين الصاد والزاي في ألفاظ عدة إذ قال:

"وإنما دعاهم إلى أن يقربوها ويبدلوها أن يكون عملهم من وجه واحد وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد إذ لم يوصلوا إلى الإدغام لم يجسروا على إبدال الدال صاداً لأنها ليست بزيادة كالتاء في افتعل"[1].

ويذهب المحدثون إلى أن الإبدال يقع بين الأصوات المتقاربة مخرجاً أو صفة وهو تطور طبيعي في أصوات كل لغة [2]. حيث تهدف عملية الإبدال إلى اقتصاد في الجهد العضلي[3] وقد روى الخليل طائفة من أمثلة الإبدال بين السين والصاد وهي من أكثر نماذج الإبدال ذكراً وبين الدال والتاء والطاء واللام والراء من ذلك مثلاً:

"السماخ: لغة في الصماخ وهو والج الأذن عند الدماغ ولغة تميم الصمخ والصماخ"[4].

وقال: "الناشص لغة في الناشز، نشصت المرأة على زوجها ونشزت إذا أبغضته وكرهته"[5].

وقال: "الصندوق لغة في السندوق ويجمع صناديق"[6].

---

[1] الكتاب: 4/ 478.

[2] من أسرار اللغة: 58.

[3] اللهجات العربية في التراث: 1/ 349.

[4] العين: 4/ 206.

[5] نفسه: 6/ 226.

[6] نفسه: 5/ 246.

وقال: "الرصغ لغة في الرسغ"[1].

وقال: "والسخب: الصخب بلغة ربيعة"[2].

ومن أمثلة الإدغام قوله:

"الود: الوتد بلغة تميم فإذا صغروا ردوا التاء فقالوا وتيد"[3].

وقال: "الأنجاس والأجاص لغتان كالانجانة والأجانة"[4].

ومن المعاقبة بين الواو والياء قوله:

"التيه والتوه لغتان يقال تاه يتيه تيها وتاه يتوه توها"[5].

وقال: "الكلوة: لغة في الكلية لأهل اليمن"[6].

وقال أيضاً: "الهدية ما اهتديت إلى ذي مودة من بر وبجمع هدايا ولغة أهل المدينة: هداوى" [7].

وقال: "المحو لكل شيء يذهب أثره تقول: أنا أمحوه وامحاه وطيء تقول: محيته محيا"[8].

---

(1) العين: 4/ 372.
(2) نفسه: 4/ 203.
(3) نفسه: 8/ 100.
(4) نفسه: 6/ 46.
(5) نفسه: 4/ 80.
(6) نفسه: 5/ 405
(7) نفسه: 4/ 77.
(8) نفسه: 3/ 314.

مجال الصرف:

وما ذكره من نصوص لهجية في مجال الصرف أقل بكثير مما أثبته في مجالي الأصوات ودلالة الألفاظ من ذلك ما يتعلق بظاهرة القلب المكاني والتردد بين صيغتي فعل وأفعل وتصريف الأفعال وأبنيتها والمد والقصر وغيرها.

ومن غير شك في أنّ ظاهرة القلب المكاني كانت معروفة لدى الخليل ومن الراجح أن يكون من بين أسبابها اختلاف اللهجات العربية في نطق الكلمة بطريقة القلب[1].

ومن الأمثلة على ذلك قول الخليل:

"المضد لغة في الضمد في بابه يمانية من المقلوب"[2].

وقوله: "الطبيخ:لغة في البطيخ حجازية"[3].

وقال: "يتلقلق ويتقلقل لغتان"[4].

وقال: "الرفش والرشف سوادية وهي المجرفة يرفش بها البر رفشاً".

وقال أيضاً: "وخزن لغة في خنز وخنزت الجوزة خنوزا: عفنت.." [5].

وقد أثبت الخليل أمثلة أخرى لاختلاف اللهجات في استعمال صيغتي فعل وأفعل والميل إلى إحدى الصيغتين وترك الأخرى.

قال: "وفى يفي وفاء فهو واف: وفيت بعهدك ولغة أهل تهامة: أوفيت"[6].

---

(1) ظاهرة القلب المكاني في العربية:، د. عبد الفتاح الحموز: 73.

(2) العين: 7/ 24.

(3) نفسه: 4/ 225.

(4) نفسه: 5/ 26

(5) نفسه: 6/ 254.

(6) نفسه: 8/ 409، وهنالك أمثلة أخرى في 4/ 181، 6/ 96، 2/ 399، والتردد بين صيغتي فعل وأفعل ظاهرة لهجية معروفة.

وقال: "وتقول: رعدت السماء وبرقت ويقال: أرعدت وأبرقت، ويقال: أرعد لي فلان وأبرق: إذا هدد وأوعد"[1] واستشهد بقول الكميت:

أبـــرق وأرعـــد يـــا يزيـــــ ـــد فما وعيـــدك لـــي بضـــائر [2]

ومن الظواهر الصرفية الأخرى اختلاف اللهجات في أوزان الأفعال وأبنيتها من ذلك قوله:

وقال: " نكِل ينكل تميمية ونكَل حجازية، يقال نكَل الرجل عن صاحبه إذا جَبُن" [3].

وقال: " نَحَت ينحِت وينحَت لغة" [4].

وقال: " بَقِي الشيء بقاء وهو ضد الفناء... وبقي ويبقى لغة وكل باء مكسورة في الفعل يجعلونها ألفاً نحو: بقى ورضى وفنى" [5].

وهي لهجة طيء [6].

ومن خلال هذه النصوص يتبين لنا أن ما شاع في العربية الفصحى من أبنية الأفعال إنما هو مزيج من لهجات عدة[7] نقله رواة اللغة من غير عناية بنسبة هذه الصيغة أو تلك إلى القبائل التي استعملتها في أغلب الأحيان[8].

---

(1) العين: 8/ 409.
(2) نفسه: 2/ 33 ـ 34.
(3) نفسه: 6/ 183
(4) نفسه: 5/ 371.
(5) نفسه: 3/ 191.
(6) نفسه: 5/ 230
(7) مجلة الخليج العربي: العدد الخاص (لهجة طيء، الدكتور خليل العطية: 103).
(8) في اللهجات العربية: 168.

مجال دلالة الألفاظ:

وردت طائفة من النصوص اللهجية تمثل جملة من الاختلافات اللهجية تدخل في مجال تخصيص الدلالة أو تعميمها أو في مجال الترادف والمشترك اللفظي والأضداد.

من ذلك مثلاً: "القمعل: القدح الضخم بلغة هذيل"[1].

وقال: "العِنْك: سدفة من الليل، يقال مضى من الليل عِنْكٌ، والعِنْكُ: الباب بلغة أهل اليمن"[2].

وقال: "أهل العراق يسمون المربع: كعبة، والكعبة: البيت الحرام وكعبته تربيع أعلاه"[3].

وقال: "الكُراخة: الشقة من البواري، بغدادية"[4].

وما تزال تحتفظ هذه اللفظة بدلالتها في لهجة جنوب البصرة المعاصرة.

وقال: "البطة: الدبة بلغة مكة"[5].

وقال أيضاً: "الضحك: الثلج ويقال جوف الطلع وهي من لغة بني الحارث، ويقال: ضحكت النخلة إذا انشق كافورها"[6].

وقال: "الزَّقوم [7] بلغة افريقية[8]: الزبد بالتمر"[9].

---

(1) لهجة قبيلة أسد: 177.

(2) العين: 2/ 300.

(3) نفسه: 1/ 203.

(4) نفسه: 1/ 207.

(5) نفسه: 4/ 156.

(6) نفسه: 3/ 58.

(7) الزقوم: شجرة بجهنم وطعام أهل النار، ينظر: القاموس المحيط: 4/ 126 (زقم).

(8) وهي تونس الحالية وما صاقبها، ينظر: معجم البلدان: 1/ 324.

(9) العين: 5/ 94.

وقال: "القَشْمُ: اللحم إذا نضج وأحمر فسالَودكه الواحدة قَشْمةٌ بلغة تَغْلِب"[1].

ومن هذه النصوص يتبين لنا أنها عكست مجموعة من الخصائص اللهجية في مجال دلالة الألفاظ لاسيمافي مجال تخصيص الدلالة أو تعميمها أو انتقال الدلالة من معنى إلى معنى آخر وذلك مما تناولته الكتب التي عنيت بدراسة اللهجات العربية القديمة بشكل واف ما يغنينا عن التعرض له في هذه الدراسة.

من خلال هذه الدراسة تبين لنا أن الخليل لم يعن برواية الظواهر اللهجية في الجزيرة العربية بأسرها إنما اقتصر جهده على بعض تلك الظواهر فضلاً عن أنه أغفل ظواهر عديدة لم يعزها لأصحابها ولذلك يمكن القول إن استقراءه كان ناقصاً إذ لم يرد فيه لقبائل قيس وأسد وطيء إلا النزر اليسير الذي لا يعكس الواقع اللهجي لهذه القبائل على سعة بطونها وانتشارها في أرجاء واسعة من نجد والحجاز ويصدق هذا الأمر على لهجات الأمصار فمعظم ما رواه من لهجات القبائل والأمصار لا شك أنه يمثل جهداً إضافياً ذكره الخليل إلى جانب جهده المبدع في تأليف كتاب العين بطريقة فذة تعبر عن ذكائه الخارق ولا أظنني الآن وأنا أنهل من منهل العين العذب أسعى إلى إلقاء حجر فيه فما نقوله اليوم لا يساوي إلا النزر اليسير من مائدته العامرة.

---

(1) العين: 5/ 47 .

المصادر والمراجع

1. الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة، الدكتور هاشم الطعان، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1978.
2. الاقتراح في علم أصول النحو، لجلال الدين السيوطي، تح أحمد محمد قاسم، مط السعادة، القاهرة، 1976م.
3. بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي، أنو ليتمان، مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، مايو، 1948 مج 1، ج1.
4. التطور اللغوي التاريخي، الدكتور إبراهيم السامرائي، مط الثانية، دار الأندلس، بيروت، 1981.
5. دراسات في اللهجات العربية، لهجة طيء، الدكتور خليل العطية، مجلة الخليج العربي، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ع 5 1976.
6. شعر الكميت الأسدي، جمع الدكتور داود سلوم، مط النعمان، النجف الأشرف، 1969.
7. ظاهرة القلب المكاني في العربية، الدكتور عبد الفتاح الحموز، مؤسسة الرسالة، دار عمان، الأردن، ط الأولى، 1986م.
8. فعلت وأفعلت لأبي حاتم السجستاني، تحقيق الدكتور خليل إبراهيم العطية، مط جامعة البصرة، مديرية دار الكتب، 1979.
9. في اللهجات العربية، الدكتور إبراهيم أنيس، المكتبة الانجلو المصرية، ط الرابعة، 1973.

10. القاموس المحيط للفيروزآبادي مصور دار الجيل عن مط مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1952.

11. كتاب الحروف للفارابي، تح: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، 1970.

12. كتاب سيبويه، تح عبد السلام هارون، الهيأة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1971.

13. كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980.

14. لهجة قبيلة أسد، علي ناصر غالب، دار الشؤون الثقافية العامة، ط الأولى، بغداد، 1989 .

15. المزهر في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين السيوطي , تح: محمد أحمد جاد المولى وآخرين، مط مصطفى البابي الحلبي، مصر، د.ت.

16. معجم البلدان، ياقوت الحموي، ط لايبزك، 1866 ــ 1870.

17. من أسرار اللغة، الدكتور إبراهيم أنيس، ط الثانية، مكتبة الانجلو المصرية، 1958.

الفصل الرابع

الإبدال في لهجة جنوب البصرة

الفصل الرابع

الإبدال في لهجة جنوب البصرة(*)

على الرغم من أهمية دراسة اللهجات المعاصرة بوصفها أحد مجالات علم اللغة الحديث فإن هذا المجال ما زال يفتقر إلى جهود أكبر تقوم بمهمة وصف اللهجات وتوضيح أوجه الشبه والاختلاف بينها وبين العربية الفصحى سعياً إلى تضييق الفجوة بينها كي ترقى إلى مستوى أفضل.

ويواجه هذا المنحى من الدراسة مصاعب جمة تقف عائقاً دون دراسة اللهجات العربية المعاصرة من ذلك افتقار معظم الجامعات ومراكز البحوث إلى الأجهزة الحديثة لدراسة الأصوات ولا يملك المرء إزاء ذلك غير الاعتماد على ما قرره علماء اللغة القدماء والمحدثون من وصف الأصوات لتيسير مهمة البحث وإعطاء تصور قريب للهجات المدروسة.

ويبقى البحث الميداني على أهميته وسيلة ناقصة إذا لم تتهيأ للدارسين خبرة في مجال دراسة اللهجات والانتباه إلى الظواهر المتفردة والمتشابهة. ومن أجل الوصول إلى نتائج مرضية في مثل هذه البحوث لابد من الاعتماد على الملاحظة الدقيقة للظواهر وتسجيلها ولا غرابة في ذلك فجهود علماء العربية القدماء في مجال الأصوات كانت تعتمد على الملاحظة الذاتية وتذوق الأصوات فاستطاعوا التوصل إلى نتائج لا تختلف في الأعم الأغلب عما قرره المحدثون على الرغم من إفادتهم من الأجهزة الحديثة في مجال دراسة الأصوات.

(*) بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، العدد 22 ،1989.

ولا يضير الفصحى شيء عندما تفرعت عنها لهجات عدة لها خصائص تضرب في القدم وتتصل باللهجات العربية القديمة يدل على ذلك الكثير من الظواهر المشتركة بين اللهجات المعاصرة واللهجات العربية القديمة. وقد تنبه اللغويون القدماء إلـــى هذا النوع من الدراسة فحفظوا لنا طائفة من الظواهر اللهجية في كتبهم فضلاً عن تأليفهم في لغات القبائل والأمصار واللغات في القرآن الكريم.

وقد وجدت في لهجة جنوب البصرة طائفة من الظواهر التي تجدر دراستها ذلك لأنني انتمي لهذه المنطقة[1] فكانت ملاحظاتي تعتمد على خبرتي بهذه اللهجة فضلاً عن ذلك فقد اعتمدت على رواة من كبار السن يمثلون هذه اللهجة من كلا الجنسين. وتجنباً للإطالة اقتصر البحث على دراسة ظاهرة الإبدال بين الأصوات الصامتة وأشرت إلى التفسير الصوتي لهذه الظاهرة وربطت بين ما يجري في هذه اللهجة وظواهر جرت في اللهجات العربية القديمة والمعاصرة، وبدأت بأصوات الصفير ثم انتهيت إلى الهمزة بوصفها أقصى الأصوات مخرجاً.

ومما لاشك فيه وجود الظواهر المشتركة بين اللهجات العربية المعاصرة بحكم قانون التأثر والتأثير بين اللهجات واللغات ويمكن التثبت من ذلك لو تمت دراسة كل لهجة على حدة ووصف خصائصها وصلتها بغيرها من جهة والعربية الفصحى من جهة أخرى.

---

[1] لقد تم تهجير سكان جنوب البصرة ابتداء من الفاو حتى منطقة أبي الخصيب منذ عام 1980 بسبب نشوب الحرب بين العراق وإيران وتفرقوا في أرجاء أخرى والذين عادوا إلى مواطنهم بعد الحرب قلة قليلة منهم.

الإبدال لغةً:

البدل خلف من الشيء والتبديل: التغيير، واستبدلت ثوباً مكان ثوب آخر وأخاً مكان أخ ونحو ذلك المبادلة[1]. وأبدلت الشيء بغيره وبدله الله من الخوف أمناً[2].

ويقول الرجل للرجل: أذهب معك بفلان، فيقول: معي رجل بدله أي رجل يغني غناءه ويكون في مكانه[3].

الإبدال اصطلاحاً:

قال ابن سيده: "حد البدل وضع الشيء مكان غيره"[4]. وفي اللسان "الإبدال: جعل شيء مكان شيء آخر كإبدالك من الواو تاء في تالله"[5].

والإبدال عند المحدثين هو اختلاف بين صورتين أو نطقين لكلمة ذات معنى واحد وذلك الاختلاف لا يجاوز حرفاً واحداً من حروفها بشرط أن توجد علاقة صوتية بين الحرفين المبدل والمبدل منه[6].

والذي أعنيه بالإبدال في هذا البحث لا يخرج كثيراً عن المعنى الاصطلاحي الذي ذكره المحدثون على الرغم من أن من بينهم من عدَّ الإبدال ضرباً من ضروب المماثلة"[7].

---

(1) العين: 8/ 45 (بدل).
(2) الصحاح: 4/ 1632(بدل).
(3) اللسان: 11 / 48 (بدل).
(4) المخصص: 13/ 267.
(5) اللسان: 11/ 48 (بدل).
(6) من أسرار اللغة، الدكتور إبراهيم أنيس: وينظر الإبدال لأبي الطيب اللغوي: 1/ 9 (المقدمة).
(7) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، الدكتور عبد الصبور شاهين: 74.

وقد عني اللغويون القدماء بدراسة هذه الظاهرة فألفوا فيها من ذلك:

أ- القلب والإبدال لابن السكيت (244هـ).

ب- الإبدال والمعاقبة والنظائر للزجاجي (340هـ).

ج- الإبدال لأبي الطيب اللغوي (351هـ).

وهذه الكتب وصلت إلينا جميعاً.

وأفرد طائفة منهم أبواباً في كتبهم لعرض هذه الظاهرة منهم: سيبويه، وابن جني، وأبو علي القالي، وابن سيده[1].

واشترطت طائفة من اللغويين وجود علاقة صوتية بين الأصوات التي يحدث فيها الإبدال من ذلك قول الفراء (ت 207هـ): إنما يعلم ما ينسب من الحروف باللغة أن يبدل الحرف من أخيه ويكون معه في قافية واحدة مثل: مدح ومده والنون والميم والعين والهمزة مثل: استأديت واستعديت وهذا كثير يبدل الحرف من أخيه فيدغم فيه إذا قريب ذلك القرب"[2].

وذهب ابن جني مذهب الفراء في أن الإبدال لا يقع إلا مع الأصوات المتقاربة المخارج وعد الحروف التي يقع بينها البدل أحد عشر خرفاً وقال: "وتسمى حروف البدل ولسنا نريد البدل الذي يحدث مع الإدغام وإنما نريد البدل من غير إدغام"[3].

---

[1] الكتاب: 4/ 237، الخصائص: 2/ 82 - 88، الأمالي: 2/ 68، 78، 113، 155 ومواضع أخرى، المخصص: 13/ 267.

[2] شرح كتاب سيبويه للسيرافي (مخطوط) ج3 نقلاً عن القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: 73.

[3] سر صناعة الإعراب: 1/ 72، واختلف اللغويون في عددها فهي عند القالي اثنا عشر حرفاً، ينظر الأمالي: 2/ 182، وعند ابن سيده ثلاثة عشر حرفاً، ينظر: المخصص: 13/ 267.

وذهب ابن سيده إلى أن: "ما لم يتقارب مخرجاً البتة فقيل على حرفين غير متقاربين فلا يسمى بدلاً وذلك كإبدال حرف من حروف الفم من حروف الحلق"[1].

أما المحدثون فلم يخرجوا عما ذهب إليه القدماء فحتموا وجود علاقة صوتية بين الأصوات التي يحدث فيها الإبدال فاشترط عز الدين التنوخي وجود تقارب في المخرج أو في المخرج والصفة بين الصوتين المتبادلين[2]. وأكد الدكتور إبراهيم أنيس أهمية العلاقة الصوتية بين الحرفين المبدل والمبدل منه[3].

وإلى ذلك ذهب الدكتور عبد الصبور شاهين، قال: "الإبدال لا يكون إبدالاً حقاً إلا إذا كان بين البدل والمبدل منه علاقة صوتية كقرب المخرج أو الاشتراك في بعض الصفات الصوتية كالجهر والهمس والشدة والرخاوة"[4].

أما أمثلة الإبدال التي وردت في كتب الإبدال ولا رابط بينها في المخارج والصفات فلا تعد من الإبدال في رأيهم. بل فسروا ذلك على أن كل صورة تكون مستقلة عن الأخرى على حين لم يستبعد آخرون وجود الإبدال بين الحروف المتباعدة في المخارج والصفات ورجحوا أن يكون ذلك نتيجة لتغييرات طرأت على الأصوات على امتداد الزمن إلى الدرجة التي تخفى فيها العلاقة بين الصوتين المتبادلين[5].

واختلف اللغويون بشأن وجود هذه الظاهرة فعد أحمد بن فارس أن من "سنن العرب إبدال الحروف وإقامة بعضها مقام بعض"[6].

---

(1) المخصص: 13/ 274.

(2) مقدمة الإبدال لأبي الطيب اللغوي: 1/ 9.

(3) من أسرار اللغة: 75.

(4) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: 73.

(5) أبو الطيب اللغوي وآثاره في اللغة: 47.

(6) الصاحبي: 173.

وذهب أبو الطيب اللغوي خلاف ذلك وفسر الظاهرة بأنها من تباين اللهجات، قال: "وليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف وإنما هي لغات مختلفة لمعان متفقة تتقارب اللفظتان في لغتين لمعنى واحد حتى لا يختلفا إلا في حرف واحد والدليل على ذلك أن قبيلة لا تتكلم بكلمة طوراً مهموزة وطوراً غير مهموزة ولا بالصاد مرة بالسين أخرى وكذلك إبدال لام التعريف ميماً والهمزة المصدرة عيناً كقوله في أن (عن) لا تشترك العرب في شيء من ذلك إنما يقول هذا قوم وذاك آخرون"[1].

ويمكن أن نفسر وجود هذه الظاهرة على النحو الآتي:

أ- أن الإبدال ظاهرة لغوية وما ورد في العربية منها أثر لاختلاف اللهجات العربية القديمة والدليل على ذلك ما ورد من أمثلة كثيرة كان التباين اللهجي هو الواضح فيها سواء أكان معزواً أم أهمل اللغويون عزوه.

ب- أن الإبدال يعد ظاهرة طبيعية في العربية الفصحى عبر تأريخها الطويل وعبر صلاتها الحميمة باللغات الجزرية الأخرى فقد اشتركت العربية مع غيرها في ظواهر كثيرة منها ظاهرة تسهيل الهمز التي تعد إحدى ظواهر التطور الصوتي فيها[2].

وسواء أكان الإبدال ظاهرة لغوية أم تبايناً لهجياً فحدث ذلك ويحدث نتيجة التطور الصوتي[3].

---

(1) المزهر: 1/ 460.

(2) من أسرار اللغة: 77.

(3) نفسه: 75.

السين والصاد:

حدد القدماء مخرج السين بين طرف اللسان وفويق الثنايا وهو صوت رخو مهموس[1] ويتفق الصاد في المخرج، وفي صفتي الهمس والرخاوة[2] إلا أن الصاد مطبق أما المحدثون فالسين عندهم لثوي احتكاكي (رخو) مهموس والصاد لثوي احتكاكي مهموس مفخم (مطبق)[3].

فالاختلاف بين الصوتين هو في كون الصاد من الأصوات المطبقة أو المفخمة أما السين فلا إطباق فيه.

وقد جنحت هذه اللهجة إلى إبدال السين صاداً في طائفة من المفردات فحولوا السين إلى صوت مفخم حتى أصبحت صاداً وذلك نظراً لتأثر الأصوات ببعضها وميلها إلى التقارب فيما بينها وذلك ما عده المحدثون من قبيل المماثلة بين الأصوات سعياً إلى الاقتصاد في الجهد العضلي وتيسير النطق[4]. ولم يغفل القدماء هذه الظاهرة فاصطلح عليها سيبويه بالمضارعة والتقريب[5] وأطلق عليها ابن جني التقريب[6].

---

[1] الكتاب: 4/ 434.

[2] نفسه والصفحة نفسها.

[3] الأصوات، كمال بشر: 120.

[4] الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: 179.

[5] الكتاب: 4/ 477.

[6] الخصائص: 2/ 143.

ومن المفردات التي أبدلت فيها السين صاداً قولهم:

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
بساط	بصاط
سراج	صراج
سخّر	صخّر
ساخن	صاخن
سبخ	صبخ
سلخ	صلخ
العيس	العيص
فانوس	فانوص
سخام	صخام
سخلة	صخلة
سطع	صطع
سطا	صطا
سطر	صطر

وذكر ابن سيده أن بني العنبر من تميم قالوا صاطع في ساطع[1] وقد ورد هذا الإبدال في لهجة تميم فقال التميميون: (الصاق) في (الساق) وقالوا: الصراط وصيقل وصلغ وصخب في السراط وسيقل وسلغ وسخب[2] وقال الفراء: "ماء سخن وصخن:" [3].

---

(1) المخصص: 13/ 273.

(2) لهجة تميم، الدكتور غالب المطلبي: 92.

(3) الإبدال لابن السكيت في ضمن الكنز اللغوي: 42.

وحدد كانتينو هذا الإبدال حينما تكون السين قبل الغين أو الخاء و القاف أو الطاء[1]. وعد المحدثون جنوح اللهجة إلى تفخيم الأصوات غير المفخمة بمثابة صفة من صفات اللهجات البدوية. ولاشك في أن هذا النهج امتداد للموروث من لهجة تميم[2].

الذال والظــــاء:

مخرج الذال والظاء من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا فهما لثويان عند القدماء[3] ومن الأصوات الأسنانية عند المحدثين فعند النطق بهما يتصل طرف اللسان بأطراف الثنايا العليا إذ يكون بينهما مجرى ضيق يصدر عنه نوع من الحفيف[4] وعلى الرغم من اشتراكهما في المخرج وفي صفتي الرخاوة والجهر فإن الظاء من الأصوات المطبقة. يقول سيبويه:" لولا الإطباق لصارت الظاء ذالاً"[5].
وقد سعت اللهجة إلى إبدال الذال ظاء على سبيل التفخيم من ذلك مثلاً:

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
ذكر	ظكر
مذكور	مظكور
ذخر	ضخر
ذراع	ظراع
ذاق	ضاك
ذوق	ظوك
ذرق	ظرك
الذرا (الكنف أو الظل)	ظرا

(1) دروس في علم أصوات العربية: 73.
(2) في اللهجات العربية: 127.
(3) الكتاب: 4/ 433.
(4) الأصوات اللغوية: 48، الأصوات: 119.
(5) الكتاب: 4/ 436.

ولاشك أن الميل إلى تفخيم الذال لا يخص هذه اللهجة فقط بل تجده في أنحاء أخرى من البصرة وغيرها.

الجيم والياء:

مخرج الجيم من وسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى وهو صوت مجهور شديد[1] أما عند المحدثين فهو صوت لثوي حنكي مركب (انفجاري احتكاكي) مجهور والياء يشترك مع الجيم في المخرج عند القدماء وهو مجهور[2] وعند المحدثين هو " صوت حنكي وسيط مجهور"[3].

ويحدث إبدال الجيم ياء في طائفة من الألفاظ يمكن حصر طائفة منه على النحو الآتي:

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
ثلج	ثَلِي
نجد	نَيد
نجدي	نَيْدي
جعفر	يَعفر
سرج	سَرِي
جامع	يامِع
مَسجد	مَسيد
جوعان	يُوعان
جبل	يِبَل

(1) الكتاب: 4/ 433 ـ 434.

(2) الأصوات: 126.

(3) نفسه: 133 .

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
جمل	يمَل
جمد	يمَد
جابر	يابِر
جناح	يْناح
وجه	وَيه
جديد	يْديد
جر الحبل	يَرّ الحبل
الجود	اليُود
يوم الجمعة	يوم اليمْعة
جمار	يُمّار
جار	يار
عجن	عيَن
الدجاج	الدّياي
منجل	منْيَل
جاء	يا
جئت	ييت
يعرج	يعْري
المزلاج	المزْلاي

إن هذه الظاهرة لا تقتصر على هذه اللهجة فحسب بل أثرت عن طائفة من اللهجات المعاصرة تمتد من الجزء الجنوبي لشبه جزيرة العرب ودول الساحل الشرقي منها وكذلك في الأحواز وبعض مناطق الشام[1].

(1) دراسات في لهجات شرق الجزيرة العربية، جونستون: 64.

وأثر ذلك عن لهجة الكويت أيضاً[1] وفي لهجة المحرق في البحرين[2] ومن خلال الأمثلة التي ورد فيها إبدال الجيم ياء نتبين أن ذلك لا يرتبط بموقع معين كأن تجاور الجيم صوت لين معين أو تكون في أول الكلمة أوآخرها وقد فسر الدكتور عبد العزيز مطر هذا المنحى في لهجة الكويت "أن الجيم والياء من مخرج واحد وهو وسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى والفرق بينهما إنما هو في طريقة النطق فالجيم تنطق بالتقاء وسط اللسان بالجزء الصلب من سقف الحنك أما في الياء فإن وسط اللسان لا يلتقي بهذا الجزء بل يقترب منه"[3].

لقد كان لهذه الظاهرة أصل عند قبيلة تميم فذكر أنهم يقولون: صهاري وصهري في صهاريج وصهريج[4]، وذكر أبو الطيب اللغوي رواية تؤكد وجود مثل هذا الإبدال عند طائفة من العرب فقال: " قال أبو حاتم: قلت لام الهيثم: هل تبدل العرب الجيم ياء في شيء من الكلام ؟فقالت: نعم، ثم أنشدتني:

إذا لم يكن فـيكن ظـل ولا جنـى فأبعـدكن الله مـن شـيرات

أي من شجرات" [5].

ونقل ابن السكيت أن بعضهم قال: شيرة للشجرة [6].

ومما ذكر ابن خالويه في ضمن القراءات الشاذة: "هذه الشجرة بكسر الشين وهذه الشيرة بالياء حكاه أبو زيد"[7].

---

(1) خصائص اللهجة الكويتية، الدكتور عبد العزيز مطر: 17.

(2) دراسة صوتية في لهجة البحرين، الدكتور عبد العزيز مطر: 27.

(3) خصائص اللهجة الكويتية: 20.

(4) الإبدال: 1/ 261، وينظر: لهجة تميم: 101.

(5) الإبدال: 29.

(6) مختصر شواذ القراءات: 4.

(7) دراسات في لهجات شرق الجزيرة: 63.

ولعل الميل إلى الياء في طائفة من الألفاظ إنما جرى لتقليل الجهد العضلي.

وقد حدد جونستون حدوث قلب الجيم ياء حينما تتصل بأي صوت من أصوات اللين الأمامية أو الخلفية وافترض أن هذا الإبدال هو خصيصة مكتسبة في لهجات شرق الجزيرة ولهجات شمال الجزيرة العربية، إلا أن افتراضه لا يمت إلى الدقة بصلة فقلب الجيم ياء ظاهرة عرفتها العربية قديماً وكانت شائعة في لهجة تميم إلا أن اللغويين لم يسجلوا غير جزء يسير منها.

وقد سمعت أكثر من واحد من أطراف مدينتي السماوة والحلة والزبير ممن يقلب الجيم ياء والظاهر أنّ هذا الإبدال لا تختص به لهجة جنوب البصرة بل يشمل أرجاء أخرى من العراق والوطن العربي.

القاف والكَاف (الجيم القاهرية):

مخرج القاف من أقصى للسان وما فوقه من الحنك الأعلى وهو صوت مجهور شديد[1]. أما الكاف فقد عده سيبويه وابن جني من الحروف غير المستحسنة في القرآن والشعر: والكَاف التي بين الجيم والكاف والقاف[2]. وقال ابن جني: "ولا تكاد توجد إلا في لغة مرذولة غير متقبلة وهي الكاف التي بين الجيم والكاف"[3].

وذكر ابن دريد أن هذا الصوت معروف في لغات اليمن فقال: [4] لغة سائرة في اليمن مثل (جمل) إذا اضطروا قالوا: (كَمل)[5] واستشهد ابن فارس بقول أبي الأسود الدؤلي:

---

(1)

(2) الكتاب: 3/ 433 – 434.

(3) نفسه: 4/ 432.

(4) سر صناعة الإعراب: 1/ 51.

(5) الجمهرة: 1/5.

ولا اكَول لكَدر الكَوم كَد نضجت ولا اكَول لباب الدار مكَفول

ووصف الصوت بأنه الحرف الذي بين القاف والكاف والجيم[1].

وورد قول أبي الأسود في اللسان وفي ديوانه:

ولا أقول لقدر القوم قد غليت ولا أقول لباب الدار مغلوق[2]

وأظن أن الرواة طمسوا الأثر اللهجي الذي ورد في رواية أحمد فارس.

وقد قرأ عبد الله بن مسعود: (فأما اليتيم فلا تكَهر)[3] (سورة الضحى: 9) والظاهر أن هذا الإبدال قديم عرف في طائفة من اللهجات العربية القديمة كلهجة تميم ولهجة بني أسد[4]. وروى أبو زيد: "الكَصير لغة لبعض العرب في القصير"[5] وقال أيضاً: " الغسكَ في الغسق وهو الظلمة"[6].

ويحدث صوت الكاف حينما يتقدم مخرج القاف قليلاً إلى الإمام مع المحافظة على صفتي الجهر والشدة والتقليل من الاستعلاء[7].

وقد كثر هذا الإبدال في هذه اللهجة التي تحولت فيها القاف إلى كاف ثقيلة تنطق كالجيم القاهرية من ذلك:

---

(1) الصاحبي: 54، المزهر: 222/1، وعزا اللغة إلى تميم.

(2) اللسان: 15/ 134 (غلا) وديوان أبي الأسود تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين: 119.

(3) تفسير القرطبي: 100/20.

(4) لهجة تميم: 104، لهجة أسد: 100.

(5) التهذيب: 10 / 42 (كَصر)، التكلمة: 3/ 187.

(6) التهذيب: 10 / 42 (كَصر).

(7) لهجة البحرين: 48.

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
قفص	كَفَص
قال	كَال
رزاق	رزاكَ
موقد	مُوكَد
قحط	كَحَط
عذق	عِثكَ
صقر	صَكَر
أقط	إكُط
قعد	أكِعَد
ساق	ساكَ
لصق	لِزَك
بخنق	بُخْنُكَ
فوق	فُوكَ
قماش	كُماش
ينقل	يِنِكُل
قطعة	كَطعة
قمر	كُمَر

ولا يقتصر هذا الإبدال على هذه الألفاظ فقط بل هنالك العشرات من الألفاظ آثرت إهمالها خشية الإطالة في البحث كما ينبغي أن ننبه إلى أن هذه الظاهرة تنتشر في أرجاء عديدة من الوطن العربي[1].

القاف والجيم:

من الصور النطقية للقاف في هذه اللهجة أنها تنطق جيما وهي تختلف عن الجيم الفصيحة إذ هي خالية من التعطيش الذي تتصف به الجيم التي ينطقها سكان الأهوار في ميسان وبعض نواحي الشام[2] ويحدث هذا الإبدال حينما تسبق القاف أو تلحق بصوت لين أمامي أي الكسرة وياء المد والفتحة المرققة أو ألف المد المرققة فإن صوت اللين يجذب صوت القاف إلى الإمام فيخرج من وسط الحنك[3] مع المحافظة على صفتي الجهر والشدة أي أن القاف تنطق جيماً وقد أبدلت القاف جيماً في طائفة من الألفاظ منها:

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
قاعد	جاعد وبعضهم يقول كاعد
قدام	جِدّام
قدمي	جِدمي
أقدامي	جْدامي
ساقية	ساجية
سواقي	سُواجي
سويق	سُويج

(1) ينظر في ذلك لهجة البحرين: 42 – 43 إذ هي لهجة المحرق وسترة، وخصائص اللهجة الكويتية: 31، وفي اللهجة الصنعانية: 49.

(2) التوزيع اللغوي الجغرافي: 236.

(3) لهجة البحرين: 48 – 49.

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
قدر	جِدِر
صديق	صِدِيج
قريب	جِرِيب
باقلاء	باجِلة
غريق	غِريج
حريق	حِريج
طريق	طِريج

وقد عاقب العرب قديماً بين القاف والجيم فورد في اللسان:

"وعزج الأرض بالمسحاة إذا قلبها كأنه عاقب بين عزق وعزج"[1] وحدق فلان الشيء بعينه يحدقه حدقاً: نظر إليه، وحدج مثل حدق والتحديج مثل التحديق"[2].

"والمزلاق لغة في المزلاج الذي يغلق به الباب ويفتح بلا مفتاح"[3]، و"القمزة بالضم مثل الجمزة وهي كتلة من التمر"[4]، و"التزلج: التزلق"[5].

وأغلب الظن أن العدول عن القاف إلى الجيم نابع من أن القاف أحد الأصوات المستعلية لكنهما يشتركان في الشدة غير أن الجيم مجهور لثوي حنكي والقاف لهوي مهموس ولعل الميل للجيم هو للتخفيف من الجهد العضلي.

---

(1) اللسان: 2/ 323 (عزج).

(2) الصحاح: 1/ 305 (حدج).

(3) نفسه: 4/ 1491(زلق).

(4) نفسه: 2/ 889 (قمز).

(5) نفسه: 1/ 319 (زلج).

الكاف والجيم:

ذهب سيبويه إلى أن صوت الــچيم (چــ) أقرب ما يكون إلى الكاف[1]. وهو صوت الكشكشة الذي عرف في اللهجات العربية القديمة. وحدده ابن دريد بأنه بين الجيم والشين[2]، ولعل أحمد بن فارس وصفه بدقة أكثر إذ قال: " الحرف الذي بين الشين والجيم والياء"[3].

وحصر القدماء هذا الإبدال في كاف المخاطبة سواء أكان ذلك في الوقف أم في الوصل: "وذلك قولك: إنّشِ ذاهبة ومالشي ذاهبة، تريد: إنك ومالك"[4].

وقرئ قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ (مريم: 24): (جعل ربش تحتش سريا)[5].

أما المحدثون فذهبوا إلى أن صوت الكشكشة يوافق صوت ch في كلمة chair في اللغة الانكليزية وذلك مما لا تختص به اللهجات العربية القديمة والحديثة فحسب، بل يشمل الكثير من لغات العالم " وهي قلب الكاف التي يليها صوت لين أمامي أياً كان موضعها إلى نظيرها من أصوات وسط الحنك"[6].

أشار جونستون إلى هذه الظاهرة بقوله: "في الكلمات العربية قد تتحول الكاف إلى (جــ) عند مجاورتها لأصوات اللين الأمامية"[7].

---

(1) الكتاب: 4/ 199.

(2) الجمهرة: 1/ 5.

(3) الصاحبي: 54.

(4) الكتاب: 4/ 199، سر صناعة الإعراب: 1/ 216.

(5) شرح المفصل: 9/ 49.

(6) في اللهجات العربية: 124، خصائص اللهجة الكويتية: 42.

(7) دراسات في لهجات شرق الجزيرة: 85.

فالذي يحدث هو: "أن صوت اللين الأمامي يجذب صوت الكاف من أقصى الحنك إلى وسطه حيث مخرج الشين ويصحب ذلك تغير صفة الكاف من الشدة إلى الرخاوة"[1] ولم يقتصر في هذه اللهجة إبدال كاف المخاطبة جيماً بل تجاوزه إلى طائفة كبيرة من الألفاظ منها:

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
كان	چان
كنت	چِنِت
كلب	چَلِب
كمأة	چِمَه
كاسب	چاسِب
كبد	چَبِد
كذبة	چِذبه
كتف	چِتِف
كال	چَال
كلمة	چِلْمَه
دكة	دَچّـــه
حاكم	حاچِم
يبكي	يبْــچي
يحكي	يحـــچي
يكري	يـــچري
سبيكة	سبيـــچـــه

(1) لهجة البحرين: 57، أصوات اللين الأمامية هي الكسرة أو ياء المد والفتحة المرققة أو ألف المد. ينظر: خصائص اللهجة الكويتية: 39.

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
سكك	سـچچ
بركة	برچـه
يبارك	يبارچ
ركيك	رچيـچ
مسكين	مسـچين
ديك	ديـچ
شباك	شباچ
سمك	سمـچ

ويطرد هذا الإبدال في كاف المخاطبة أينما ورد في هذه اللهجة على النحو الذي حدده الأقدمون وسموه الكشكشة[1] . لكن اللهجة حافظت على نطق الكاف ولم ولم تبدلها في طائفة من الألفاظ منها:

كوثر، مكة، مالك، ملكة، ملك، كتاب، كريم، أكل، أكله، كاظم، كاظمية، كرب، كود.

القاف والغين:

القاف عند المحدثين صوت لهوي شديد مهموس والغين صوت من أقصى الحنك رخو مجهور[2]. وقد ورد نطق القاف غيناً في هذه اللهجة حيث يتأخر مخرج القاف قليلاً نحو أدنى الحلق إلى الفم ويحافظ الصوت على صفتي الجهر والاستعلاء ويتحول من الشدة إلى الرخاوة[3].

(1) الكتاب: 4/ 199، اللسان شقا: 6/ 342 (كشش)، وينظر: لهجة اقبيلة أسد: 105.
(2) الأصوات: 109، 121.
(3) لهجة البحرين: 49.

وقد ورد في هذه اللهجة طائفة من الألفاظ أبدلت بها القاف الفصيحة إلى الغين منها:

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
قصر	غصر
قرأ	غر
دقيقة	دغيغة
دقيقتين	دغيغتين
دقائق	دغايغ
عبد القادر	عبد الغادر
فقط	فغد
شقا[1]	شغا
قرآن	غرعان وبعضهم يقول: قرعان
القضية	الغضية
يتنشق	يتنشغ

وقد ورد إبدال الغين قافاً في طائفة من الألفاظ منها:

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
غرفة	قُرفة
يغرف أي يجذف	يقرف
غاص	قاص
الغوص	القُوص
غداء	قِدَه

(1) التوزيع اللغوي الجغرافي: 225.

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
غابت الشمس	قابت
غمس	قمس
غمز	قمز

وحدث نظير هذا الإبدال في لهجة المحرق التي تنطق طائفة من الألفاظ فيها صوت الغين فتبدل قافاً عربية[1].

وقد ورد في العربية الفصحى تناوب القاف والغين في ألفاظ من ذلك ما ذكره صاحب اللسان: تغلغل: أسرع في السير ورسالة مغلغلة: محمولة من بلد إلى بلد في سرعة وتقلقل في البلاد تقلب فيها مسرعاً والتقلقل: الخفا والإسراع[2].

والنشوق والنشوغ: السعوط الذي ينشق.

العين والهمزة:

حدد القدماء مخرج العين من أواسط الحلق وهو بين الرخو والشديد مجهور[3] أما مخرج الهمزة فمن أقصى الحلق مجهور شديد[4].

أما المحدثون فالعين عندهم صوت حلقي رخو مجهور[5] والهمزة صوت حنجري شديد لا هو بالمهموس ولا بالمجهور[6].

---

(1) لهجة البحرين: 46.

(2) اللسان: 11/ 505، 567 (غلل)، (قلل).

(3) الكتاب: 4/ 433 ــ 434.

(4) نفسه والصفحة نفسها.

(5) الأصوات: 121.

(6) نفسه: 112.

وقد حدث إبدال الهمزة عيناً ووقف اللغويون القدماء عند هذه الظاهرة وسموها بالعنعنة التي كانت شائعة في قبائل تميم وقيس وأسد[1]. ووجدوا أن إبدال الهمزة عيناً ورد في إبدال همزة (أن) إذا كانت مفتوحة من ذلك قول جران العود:

فما أبْنَ حتى قلن ياليـت (عننـا)   تراب و(عن) الأرض بالناس تخسف[2]

إلا أن الثابت أن هذا الإبدال لم يقتصر على همزة أن بل شمل طائفة من المفردات فقد ورد عن تميم أنها تقول: الخبع في الخبء[3].

وجاء في لهجة تميم: اعتنفت الأمر بمعنى ائتنفته اعتنفنا المراعي أي ائتنفنا المراعي[4] وكعصنا عند فلان ما شئنا أي كأصنا بمعنى أكلنا[5].

وقد عدّ المحدثون هذا الإبدال أقصى مراحل تحقيق الهمز[6] وجنحت لهجة جنوب البصرة إلى إبدال الهمزة عيناً في ألفاظ منها:

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
فجأة	فَجعه
جرأة	يَرعه
جرئ	يَرِع
يتجرأ	يتْيرّع
هيأة	هَيْعه

(1) التهذيب: 1/ 112 (عنن)، اللسان: 13/ 295 (عنن).

(2) ديوانه: 23. (خبع).

(3) العين: 1/ 123 (ضبع).

(4) التهذيب: 3/ 3 (عنف).

(5) الجمهرة: / 76 – 77.

(6) في اللهجات العربية: 111، فصول في فقه اللغة: 127.

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
قرآن	قِرعان أو غرعان
يتهيأ	يتهيع
أجاص	عنياص

ولعل هذا الإبدال ينسجم مع طبيعة القبائل البدوية التي تميل إلى التفخيم بالصوت والجهر به[1].

وحدث إبدال العين همزة في العربية من ذلك ما ذكره ابن جني قال: "سمعت أبا الصقر ينشد:

أريني جواداً مـات هـزلا لأننـي أرى ما تـرين أو بخـيلا مخلـدا

قال يريد: لعلني"[2].

وجاء في إبدال الزجاجي قول بعض ربيعة: ياأبد الله في ياعبد الله[3] وقال بعض العرب: "هو يستعدي ويستأدي وامرأة وأمرعه"[4] وروي عن طيء قولها دأني عوضاً عن دعني[5] وحدث هذا الإبدال في لهجة جنوب البصرة من ذلك:

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
العهد	الأهد
عهدي	أهدي
عاهدته	آهته

---

(1) من أصول اللهجات العربية في السودان: 40.

(2) سر الصناعة: 1/ 240 - 241.

(3) 35.

(4) الإبدال للزجاجي: 33.

(5) بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي: 24.

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
استعهده	استاهده
العاهرة	الآهرة

وجاء فيها أيضا إلك أهد الله بمعنى لك عهد الله.

الهمـــز:

الهمز عند المحدثين صوت حنجري شديد وقفوا إزاءه مختلفين فعده بعضهم مهموسا وعده بعضهم الآخر بين المجهور والمهموس[1].

وقد جنحت هذه اللهجة إلى التخلص من الهمز فسهلت الهمز في ألفاظ عدة. ويظهر أن هذه الظاهرة ليست حديثة بل لها أصل في اللغات السامية كالبابلية والآشورية حيث تميل إلى ترك الهمزة إذا جاءت مسبوقة بحركة ويعوض عن الهمزة بمد الحركة قبلها[2].

وأثرت هذه الظاهرة عن قبائل الحجاز وقريش التي شاع فيها هذا الاستعمال[3].

وذكر ابن السكيت أن بني تميم يقولون: عباية في عباءة[4] وما تزال هذه الكلمة شائعة في لهجات عربية عدة منها لهجة جنوب البصرة. وأثر عن قبيلة أسد أنها تقول: أرجيت الأمر بدلاً من أرجأت الأمر أي أخرته[5].

---

(1) الأصوات: 112.
(2) فقه اللغات السامية، بروكلمن: 41.
(3) الكتاب: 4/ 179.
(4) القلب والإبدال: 56.
(5) إعراب القرآن للنحاس: 1/ 630.

وفسر المحدثون هذه الظاهرة بأنها: "نوع من الميل إلى السهولة والبعد عن التزام التحقيق في النطق بالأصوات"[1].

وذكر ابن قتيبة طائفة من الألفاظ التي تهمز والعامة تدع همزها منها: أبطأت واستبطأت وتوضأت وأطفأت وهدأت[2]. ولعل ما يجري في هذه اللهجة وغيرها من اللهجات العربية المعاصرة لا يختلف عما جرى في اللهجات التي عاصرها ابن قتيبة فجاء في هذه اللهجة:

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
أبطأت	بُطيت
استبطأت	استبطيت
توضأت	تُوظيت
أطفأت	طَفّيت
هدأت	هِدَيت
ملأت	مِليت
حنأت	حَنّيت

وعلى سبيل التخلص من الهمز مالت هذه اللهجة إلى تحويله إلى صوت مد[3] من ذلك:

---

(1) في اللهجات العربية: 77.

(2) أدب الكاتب: 391.

(3) حدث نظير ذلك في اللهجة الصنعانية إذ مالت إلى تسهيل الهمزة. ينظر: في اللهجة الصنعانيـــة: 49.

النطق في لهجة جنوب البصرة	الكلمة في الفصحى
راس	رأس
فاس	فأس
كاس	كأس
ذيب	ذئب
بِير	بئر
رايح	رائح
يامِر	يأمر
طاير	طائر
لِيلو	لؤلؤ

ولأجل تيسير النطق جنحت اللهجة إلى قصر الأسماء الممدودة بحذف الهمزة من ذلك قولهم في بعض الصفات التي تأتي في الفصحى على وزن أفعل فعلاء:

النطق في لهجة جنوب البصرة	الكلمة في الفصحى
خَضَر ـ خضره	أخضر ـ خضراء
حَمَر ـ حمره	أحمر ـ حمراء
عَرَيْ ـ عَرْيه	أعرج ـ عرجاء
خَرْس ـ خرسه	أخرس ـ خرساء

إلا أنهم يقولون أبيض وأسود وأزرك وبيضه وسوده وزركه ويظهر أن لذلك أصلاً في اللهجات العربية القديمة فقد حكي الفراء قال: "سمعت العرب تقول لسعف النخيل وجريده الخضر" [1].

ومن الأسماء الممدودة التي جرى قصرها بهدف التخلص من الهمز:

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
سماء	سِمَه
وفاء	وِفَه
رجاء	رِجَه
عشاء	عِشَه
غداء	غِده أو قِده
جفاء	جِفه
مساء	مِسه

ومن مظاهر التخلص من الهمز إبدال الهمزة واواً وقد ذكر ابن السكيت مثل هذا الإبدال فقال: "وقد أكدت العهد ووكدته" [2] ويقال: "آخيته وواخيته"[3] وروى عن الأصمعي: يقال أرخت الكتب وورخته، أكفت الدابة أوكفتها وقيل وسادة وإسادة ووشاح وإشاح"[4].

وعزا الزجاجي مثل هذا الإبدال إلى لهجة هذيل فجاء أنهم يقولون: أقاء في وقاء وإعاء في وعاء واد بدلاً من ود وإسادة في وسادة وأجوه في وجوه [5]. غير

---

(1) اللسان: 4/ 249 (خضر).

(2) القلب والإبدال: 56.

(3) نفسه: 57.

(4) أمالي القالي:2/ 166.

(5) الإبدال والمعاقبة والنظائر: 10، وينظر: لهجة هذيل: 197.

أن جنوح لهجة جنوب البصرة كان مخالفاً لما أثر عن هذيل فقد مالت هذه اللهجة إلى الابتعاد عن الهمزة وإبدالها واواً فمن ذلك:

الكلمة في الفصحى	النطق في لهجة جنوب البصرة
أين	وَين
أنّ	وَنْ
أنين	ونِين
أكد	وكّد
أكل	وكّل
تثاءب	تْثاوَب
أدى	وَدّى
آخي	خاوه
ذكاء	ضكاوه
ارث	ورث

ولم يقتصر هذا النطق على لهجة جنوب البصرة بل هو مأثور عن العديد من اللهجات العراقية المعاصرة.

وبعد أن تم الوقوف على أهم الأصوات التي جرى بينها الإبدال ينبغي لنا أن نقول أن هنالك أمثلة على الإبدال جرت في كلمة أو كلمتين فلم أقف عندها لأنها لا تشكل ظاهرة، فضلاً عن أن في هذه اللهجة خصائص صوتية أخرى لم يجر بحثها خشية الإطالة فمن المعروف أن الإبدال لم يحدث في الفصحى بين الأصوات الصامتة فقط بل حدث تناوب بين أصوات المد الطويلة والقصيرة لذا تركت هذا المجال إلى بحث آخر استكمل فيه هذا الجانب المهم من خصائص هذه اللهجة، مضاف إلى ذلك ما في هذه اللهجة من خصائص لغوية أخرى في مجال الصرف والنحو ودلالة الألفاظ.

وبعد عرض هذا الجانب من صفات هذه اللهجة يمكن القول إن هذه الصفات لا تشملها فقط بل هي صفات لهجية حاولت قدر المستطاع ذكر ما يشابهها من لهجات عربية معاصرة أو قديمة فهي تشارك لهجات الخليج العربي وأقليم الأحواز في إيران بشكل خاص.

المصادر والمراجع

1. الإبدال، لأبي الطيب اللغوي، تح عز الدين التنوخي، دمشق، 1960-1961.
2. الإبدال والمعاقبة والنظائر، لأبي القاسم الزجاجي، تح عز الدين التنوخي، دمشق، 1962.
3. أبو الطيب اللغوي وآثاره في اللغة، عادل أحمد زيدان، ط. الأولى، مط العاني، بغداد، 1970.
4. أدب الكاتب، ابن قتيبة، لندن، 1900(أوفسيت).
5. الأصوات اللغوية، الدكتور إبراهيم أنيس، ط. الرابعة، مط الانجلو المصرية، 1971.
6. إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس، تح الدكتور زهير غازي زاهد، ط. الأولى، مط العاني، بغداد، 1979.
7. الأمالي لأبي علي القالي، طبقة مصورة بيروت، 1980،
8. بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي، انوليمتان، مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، مج 10، ج1 1984.
9. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، ط. الثالثة، دار الكتب المصرية، 1967.
10. التكملة والذيل والصلة للصغاني، تح عبد الحليم الطحاوي، دار الكتب، القاهرة، 1970.

11. تهذيب اللغة للأزهري، تح عبد السلام هارون وآخرين الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1964.

12. التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق، الدكتور إبراهيم السامرائي، مصر، 1968.

13. جمهرة اللغة، ابن دريد، مصورة عن ط. حيدر آباد – الدكن، 1340هـ.

14. الخصائص لابن جني، تح محمد علي النجار، ط. الثانية (اوفسيت)، دار الهدى للطباعة والنشر – بيروت.

15. خصائص اللهجة الكويتية، الدكتور عبد العزيز مطر، الكويت، 19.

16. دراسات في لهجات شرق الجزيرة، ت.م جونستون، ترجمة الدكتور أحمد محمد الضبيب، الرياض، 1975.

17. دراسة صوتية في لهجة البحرين، الدكتور عبد العزيز مطر، مط جامعة عين شمس، 1980.

18. دروس في علم أصوات العربية، جان كانتينو، ترجمة صالح القرمادي، تونس، 1966.

19. ديوان أبي الأسود الدؤلي، تح الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط الثانية، مط بغداد، 1964.

20. ديوان جران العود، ط. الأولى، دار الكتب المصرية، 1931.

21. سر صناعة الإعراب لابن جني، تح مصطفى السقا وآخرين (الجزء الأول)، مصر، 1954.

22. شرح المفصل لابن يعيش، مط. المنيرية بمصر، د.ت.

23. الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تح مصطفى الشويمي، بيروت، 1963.

24. الصحاح للجوهري، تح أحمد عبد الغفار عطار، دار الكتب العربي بمصر، 1377هـ.

25. علم اللغة العام ـ الأصوات، الدكتور كمال بشر، ط. الخامسة، دار المعارف، القاهرة 1979.

26. العين للخيل بن أحمد الفراهيدي، تح الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980.

27. فصول في فقه العربية، الدكتور رمضان عبد التواب، ط. الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980.

28. فقه اللغات السامية، كارل بروكلمن، ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب، الرياض، 1977.

29. في اللهجات العربية، الدكتور إبراهيم أنيس، ط. الرابعة، القاهرة، 1973.

30. في اللهجة الصنعانية، الدكتور خليل إبراهيم العطية، مجلة الخليج العربي، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، مج 16، ع1، 1984.

31. القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، الدكتور عبد الصبور شاهين، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1966.

32. القلب والإبدال لابن السكيت (الكنز اللغوي)، تح أوغست هفنر ـ بيروت، 1903.

33. الكتاب لسيبويه تح عبد السلام هارون، الهيأة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1971.

34. لسان العرب لابن منظور، ط. دار صادر، دار بيروت، 1955 ـ 1956.

35. لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، الدكتور غالب المطلبي، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1978.

36. لهجة قبيلة أسد، علي ناصر غالب، رسالة مكتوبة على الآلة الكاتبة، جامعة البصرة، كلية الآداب، 1985.

37. لهجة هذيل، الدكتور خليل إبراهيم العطية، مجلة الخليج العربي، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، العدد الثاني، 1975.

38. مختصر شواذ القراءات لابن خالويه تح: برغشتراسر، القاهرة، 1934 (أوفسيت).

39. المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي، تح محمد أحمد جاد المولى وآخرين، مط عيسى البابي الحلبي، القاهرة، د.ت.

40. من أصول اللهجات العربية في السودان، عبد المجيد عابدين، مكتبة غريب، القاهرة، 1966.

الفَصْلُ الخَامِسُ

لهجة قبيلة سليم

الفصل الخامس

لهجة قبيلة سليم(*)

عني الدارسون المحدثون بدراسة اللهجات العربية القديمة، بوصفها مجالاً جديداً من مجالات علم اللغة العام، وانصبَّتْ جهودهم على دراسة الوحدات اللهجية الكبرى التي تمثلت بلهجات الحجاز وقيس وتميم وأسد، وهي تشكل بيئات لهجية اكتنفت عدداً من القبائل العربية القديمة. ودراسة اللهجات مهمة ؛لأنها تمثّل طوراً من تأريخ العربية، وفي الوقت نفسه تمثّل رافداً من روافدها، وسبيلاً إلى معرفة خصائص لهجاتها المعاصرة، التي ما يزال البحث فيها يسير ببطء شديد، قياساً إلى الجهود المثابرة التي يقوم بها علماءُ اللغة في الغرب الذين ما فَتِئوا يبذلون جهوداً حثيثة لدراسة اللهجات العربية المعاصرة وغيرها.

وتمثّلُ لهجة قبيلة (سُلَيم) وحدة لهجية صغرى تفرّدت بخصائص لغوية. أشار إلى بعضها علماء العربية القدماء في أثناء دراساتهم لكنهم لم يُعْنوا عناية خاصة بدراسة سماتها وتعليل ظواهرها،فجاءت ملاحظاتهم متفرقة في بطون الكتب على اختلاف مضامينها ومناهج البحث فيها،شأنهم في ذلك شأن من يسجل الظاهرة من غير تعليل أو تحليل ، وصنيعهم ذلك شمل اللهجات العربية الأخرى، مما شكّل عائقاً أمام تبيّن الصفات اللغوية لهذه اللهجة أو تلك.

وكان لزاماً عليّ القيام بجمع النصوص اللهجية من مصادر متنوعة لتوثيقها، ثم قمت بتصنيف تلك النصوص بحسب المجال الذي تنتمي إليه، على وفق

(*) بحث منشور في مجلة العرب، في العددين: ج7، 8س 33، 1998م، و ج9، 10س 33، 1998.

مجالات علم اللغة الحديث،وحاولت أن تكون هذه الدراسة وصفية تاريخية، مبيناً السمات التي تفردت بها لهجة (سليم)، وما اشتركت به مع غيرها، وقسمت البحث على فقرات شملت نبذة تأريخية عن نسب القبيلة ومواطنها في الجاهلية وصدر الإسلام، ثم فصّلت الحديث في خصائص لهجية صوتية كالميل إلى الكسر والمعاقبة والإبدال، وخصائص صرفية تميّزت بها القبيلة ولاسيما حذف أحد المثلين في الفعل الصحيح المضعّف عند إسناده إلى تاء الفاعل، وظواهر أخرى، أما في مجال النحو فتميّزت القبيلة بخصائص منها: إجراء القول مجرى الظن، ورفع الاسم بعد (منذ) واشتركت مع القبائل الأخرى في خصائص منها إلزام المثنى الألف في حالاته كلها.

أما في مجال الدلالة فقد عنيت بجرد طائفة من الألفاظ وردت ذات دلالة خاصة في لهجة سليم ألحقتها في نهاية البحث.

وقد تتبعت هذه اللهجة في شعر السُّلَميّين الذين شملهم عصر الاستشهاد إلى منتصف القرن الثاني للهجرة، لكني لم أعثر في حقيقة الأمر - إلا على النزر اليسير، وذلك لأنّ الكثير من خصائص اللهجات الواردة في الشعر الجاهلي قد طمس بفعل عيث الرواة ونُسّاخ الدواوين.

التعريف بالقبيلة:

تعد قبيلة (سُلَيم) من القبائل العدنانية، وهي فرع كبير من فروع قيس عيلان، قال عنها القلقشندي: "بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان وهم أكثر قبائل قيس عدداً"[1].

واتسعت بطون القبيلة وأفخاذها، حسبما يصوره لنا ابن حزم[2].

---

[1] قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان: 123، وصبح الأعشى: 345/1.

[2] جمهرة أنساب العرب: 216، وما بعدها، وينظر: معجم قبائل العرب: 2/ 543.

وكانت على صلة قرابة بقريش وبينهما مصاهرة وتحالف واختلاط فضلاً عن أنّ عدداً من القبائل اليمنية التي تنتهي إلى قُضاعة وبَجِيلة قد جاورت قبيلة سُليم[1].

وذكر الهمداني أنّ عدداً من الأمصار وصل إلى حرّة سُليم وخالطهم[2]، واشتهرت ديارهم بوفرة في المياه استفادت منها القبيلة في الزرع، وكثرت فيها الحِرار مثل حرّة سليم وحرّة ليلى، وكانت الحرار مناجم لمعادن اشتهرت بها، مثل معدن بني سليم [3].

وعُدّت من القبائل ذات الصلات الواسعة بغيرها، لأنه جاورت عدداً من القبائل كغطفان وهوازن وهلال، ولها صلات باليهود وقريش، وتحالف مع أشراف مكة وكبارها، لما لها من صلات اقتصادية بهذه القبيلة[4].

أما موطن القبيلة فحدّده ابن حوقل وقال: " ثم إذا جُزْتَ العَدْنَ (؟) عن يسار المدينة فأنت في بني سليم"[5].

وقال القلقشنديُّ: "وكانت مساكنهم في عالية نجد بالقرب من خيبر، ومن منازلهم حرّة سُليم وحرة النار بين وادي القرى وتَيْماء"[6].

وعُني الشيخ حمد الجاسر بتحديد مواطنهم فقال: "تمتد في غرب الجزيرة من الجنوب إلى الشمال بامتداد الحَرّة الممتدة من قرب (عُشَيرة) إلى قرب المدينة المنورة وبلادهم منتشرة في سفوحها وأوديتها الشرقية. مُتساحة في عالية نجد.

---

(1) معجم ما استعجم، البكري، 1/ 28.

(2) صفة جزيرة العرب: 131.

(3) جمهرة أنساب العرب:249-251، صفة جزيرة العرب: 154، ومعجم ما استعجم: 1/ 14.

(4) تاريخ العرب قبل الإسلام: 4/ 324.

(5) صورة الأرض: 41.

(6) قلائد الجمان: 67.

حتى (حِمى الرَّبَذَة) الواقع غرب (حِمى ضَرِيَّة) حيث تشمل بلادهم الجزء الغربي الجنوبي منه وتمتد بلادهم جنوباً حتى تشمل منهل (الدَّفِيْنة) [1].

الإبدال بين الأصوات الصامتة:

كثيراً ما وقع الإبدال بين الأصوات الصامتة في العربية ولاسيما في لهجاتها القديمة، وقد استرعت هذه الظاهرة اللغويين القدماء فألفوا في هذا المجال من البحث اللغوي[2]. واشترط بعض اللغويين وجود علاقة صوتية بين الأصوات التي يحدث فيها الإبدال، فقال الفراء: "إنما يعلم ما ينسب من الحروف باللغة أن يبدل الحرف من أخيه ويكون معه في قافية واحدة مثل: مدح ومده، والنون والميم والعين والهمزة مثل: استأديت واستعديت وهذا كثير يبدل الحرف من أخيه فيدغم فيه إذا قرب ذلك القرب"[3].

وحتم المحدثون وجود علاقة صوتية بين أصوات الإبدال[4]، ولا نغالي إذا قلنا إن هذه الظاهرة سمة لهجية ما تزال تعيش في لهجاتنا المعاصرة ولا تخلو منها لهجة من اللهجات.

---

(1) مجلة العرب، مج 1، السنة الثامنة: 4، وقد فصّل الدكتور عبد الله عبد الرحيم عيسلان في تاريخ القبيلة ومواطنها في الجاهلية والإسلام، ينظر: العباس بن مرداس السلمي الصاحبي الشاعر: 7-20.

(2) من ذلك: القلب والإبدال لابن السكيت (244هـ)، والإبدال والمعاقبة والنظائر للزجاجي (340هـ)، والإبدال لأبي الطيب اللغوي (351هـ).

(3) شرح كتاب سيبويه، للسيرافي (مخطوط، ج3 نقلاً عن القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث للدكتور عبد الصبور شاهين: 73، وينظر: سر صناعة الإعراب لابن جني: 1/ 72.

(4) مقدمة (الإبدال) لأبي الطيب اللغوي: 1/ 9، ومن أسرار اللغة: 75، والقراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: 73.

أما النصوص اللهجية التي أكدت وجود هذه الظاهرة في لهجة (سليم) فعلى قلتها تُومئ إلى وجود هذه الصفة في لهجة سليم، وبذلك فهي لا تختلف عن غيرها من اللهجات العربية القديمة. ويمكن الوقوف على ذلك على النحو الآتي:

الفاء والثاء:

لاحظ اللغويون القدماء أن الإبدال بين الفاء والثاء شائع في العربية، فقال الفراء: "والعرب تبدل الفاء والثاء فيقولون: جدث وجدف ووقعوا في عاثور شرٍّ وعافور شر والأثاثي والأثافي"[1] وذهب (انو ليتمان) إلى أن الإبدال بين الثاء والفاء عرفته العربية منذ قديم الزمان، وعُرف في جنوب جزيرة العرب[2].

وقد أُثر عن بني سليم أنهم يقولون: تكرفأ السحاب: إذا اجتمع، وأُثر عن أسد أنها تقول: تكرثأ[3].

إن الصوتين كليهما يتماثلان في صفتي الرَّخاوة والهمس[4]، مما جعل مجال تبادلهما متاحاً.

وقد ورد في كلام قبيلة طيِّئ أنها تبدل الثاء فاءً وتتفق مع سُليم في نطقها فتقول: تكرفأ السحاب، والكرفيء بدلاً من الكرثئ وهو السحاب المتراكم[5].

ورجّح (برغشتراسر) أن الأصل في هذه الألفاظ هو الثاء بدلالة أن الثوم في العبرية بالثاء، وفي الآرامية بالثاء وهما ناشئتان في رأيه عن الثاء[6].

---

[1] معاني القرآن: 1/ 41.
[2] بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي: 16.
[3] لسان العرب: 1/ 137 (كرثاء).
[4] الكتاب: 4/ 435.
[5] الإبدال: 1/ 200، وتاج العروس: 1/ 106 (كرفاء).
[6] الإبدال: 1/ 194، وينظر: لهجة طيء، للدكتور خليل العطية: 97.

ووقع هذا الإبدال في شعر الخنساء فقالت[1]:

ككرفئـــة الغيـــث ذا الصَّبيُـــــ ـــرِ ترمي السَّحاب ويُرمَـى لَهـا

وورد في شعرها ما يخالف ذلك، فقالت[2]:

أقول صخرٌ له الأجـداث مرمـومٌ وكيف أكتمُـهُ والـدمع تسـجيم

ونصّ شارح ديوانها على أنّ الجدث لغة تميم، والجدف لغة قيس، فتقول تميم: فروغ الدلّو وثروغه والواحد فَرِغ وثَرِغ وهو مجرى الماء بين عَراقي الدلو.

وأغلب الظن أن البيت قد تغيَّر بفعل الرواة، ذلك لأنّ بني سُليم من قيس وهي أقرب إلى أن تتأثر بها أكثر من تميم التي مالت إلى الثاء في مثل هذه الألفاظ، فكثيراً ما غيّر الرواة في مثل ذلك وطمسوا آثاراً لهجية عديدة، كما يمكن أن نعدَّ ميلهم إلى الفاء هو الشائع في لغتهم اليومية، لكنهم حين يتوخّون الفصحى يُؤثرون الشائع فيها.

السين والصاد:

يتفق الصوتان في صفتي الهمس والرخاوة [3]وفي المخرج والاختلاف بينهما هو في كون الصاد من الأصوات المطبقة أو المفخمة أما السين فليست من أصوات الإطباق، وقد جنحت لهجة سليم إلى إبدال السين صاداً موافقة هوازن وهذيل وأهل العالية، نقل ذلك الفراء، فهم يقولون: "هو أخوه صوغه – بالصاد – أي هو يساويه وعلى قدره وذكر أن أكثر الكلام بالسين، وقال ابن بَزرج: "هو سوغ أخيه أي طريده ولده في أثره"[4].

---

(1) التطور النحوي: 23.

(2) ديوان الخنساء: 103، وعزي البيت لأحد شعراء طيء، ينظر: الإبدال: 1/ 194.

(3) ديوان الخنساء: 126، وينظر كذلك: 186.

(4) الكتاب: 4/ 434، وينظر: علم اللغة العام، الأصوات، د. كمال محمد بشر: 120.

وأُثِرَ نظير هذا الإبدال في لهجات أخرى، فجاء في لهجة تميم: إلصاق والصراط، وصقيل وصلخ وصخب وفي غيرها: الساق والسراط وسيقل وسلغ وسخب[1].

وإيثار الصاد على السين جرى لما في الصاد من قوة ووضوح سمعي وميل إلى تضخيم الأصوات غير المضخمة الذي يعد صفة من صفات البداوة[2].

تحقيق الهمز:

من المعروف عن قبائل الحجاز ابتعادها عن تحقيق الهمز، ذكر ذلك أبو زيد الأنصاري فقال: "أهل الحجاز وهذيل وأهل مكة والمدينة لا ينبرون"[3] ومما لا شك فيه أن قبيلة سليم توسطت المسافة بين الحجاز ونجد، لذلك تضاربت الروايات التي عرضت لهذه الظاهرة، فقد روى الأزهري عن الفراء قوله "سمعت أعرابياً من بني سليم ينشد:

فإنّهـــا حيـــل الشيطان يحتئـــل

قال: وغيره من بني سليم قوله: يحتال لا همز "[4].

وجاء في (مجمع الأمثال): (ماءٌ ولا كَصَدَّاء) أنهم يهمزون: صدّاء، واستشهد بقول شاعرهم ضرار بن عتبة السعديّ:

كَـــأنِّي مـــن وَجْـــدٍ بزينـــبَ هـــائمٌ   يخالِسُ من أحواض صدّاء مشربا

"وسُئِل رجل في البادية من بني سليم عنها فلم يهمزها"[5].

---

(1) اللسان: 8/ 442 (صوغ).

(2) ينظر مفصل ذلك في لهجة تميم، د. غالب المطلبي: 92.

(3) في اللهجات العربية، د. إبراهيم أنيس: 127.

(4) اللسان، المقدمة: 1/ 22.

(5) اللسان: 11/ 187 (حول).

وورد في شعر الخنساء استعمالها لفظة (جُؤنَة) مرة مهموزة وأخرى غير مهموزة[1]. وعلّق الشارح على ورود اللفظة مهموزة بقوله: "جؤنة: سواد، وقالوا: جون وهي لغتهم"[2].

إنّ اختلاف اللهجات العربية في هذه الظاهرة يرجح أن تكون قبيلة سُليم قد أخذت من الظاهرتين معاً، وأعني بهما تحقيق الهمز وتسهيله وذلك لتأثّر اللهجة بيئتين، هما بيئة نجد التي تحقق الهمز، وبيئة الحجاز التي تُسَهِّل الهمز، أو أن الشعراء غالباً ما يتوخون اللغة الفصحى وهي التي تحقق الهمز وبها نزل القرآن الكريم أما اللغة اليومية فلا يعتدون بها كثيراً [3].

المعاقبة بين الواو والياء[4]:

آثرت بعض القبائل الصيغ اليائية على الصيغ الواوية وذلك في ظاهرة عرفت بالمعاقبة[5] وعزا صاحب (المخصّص) هذه الظاهرة لأهل الحجاز[6]، وعرفت بالمعاقبة الحجازية إذ مالت هذه اللهجة إلى الياء بدلاً من الواو، في بعض الألفاظ. ومن الراجح أنّ قبيلة سليم كانت توافق بيئة الحجاز فأثرت الصيغ اليائية على الواوية فقد ذكر الفراء في قولــه تعالى: ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ (البقرة: 260)، أن عادة القراء يضمُّون الصاد، وكان عبد الله بن مسعود

---

(1) مجمع الأمثال: 2/ 278.

(2) شعر الخنساء: 112، 294.

(3) نفسه: 294.

(4) لهجة هذيل: 200 وقد عرفت هذه الظاهرة في لهجة هذيل لكن الشعر المروي عن هذيل هو بالتحقيق وهو من خصائص اللغة المشتركة أما التسهيل فمن خصائص عامتهم من تعليق الدكتور خليل العطية على هذه الظاهرة.

(5) عرض لهذا المصطلح الدكتور أحمد علم الدين الجندي في بحث (دراسات في اللهجات العربية): 68 – 75، وينظر: في اللهجات العربية: 92 – 94.

(6) المخصص: مج 4، س19/14.

وأبو جعفر المدني يكسران الصاد وقال: "فأما الضم فكثير وأما الكسر ففي هذيل وسُليم، وأنشدني الكسائي عن بعض بني سليم:

وفَرْعٍ يُصيِرُ الجِيْدَ، وَحْــفٍ كأنــه   على اللّيت قِنْوانُ الكروم الدوالح"[1]

ولذا فالفعل في لهجة سليم صار: يَصير بمعنى: مال يميل، على حين أنه في اللهجات الأخرى صار: يصور.

ونقل ابن جني عن الكسائي قوله: "سمعت من أخوين من بني سليم يقولان: نَمَا يَنْمُو ثم سألت بني سُليم عنه فلم يعرفوه" [2] والراجح أن الشائع في لهجة سليم هو أنهم يقولون: نمى ينمي، بمعنى زاد، وقد رجّح صاحب (اللسان) هذه الصيغة بقوله: "النماء الزيادة: نمي ينمي نميا ونميا ونماء: زاد وكثر، وربما قالوا: ينمو نمواً"[3]. ولعل الاختلاف في الأداء الذي ذكره الكسائي ناجم عن تأثر قبيلة سليم بسمتين لهجيتين، ورجّح الدكتور أحمد علم الدين الجندي أن تكون القبائل الحضرية أميلُ إلى استعمال الصيغ اليائية على حين جنحت القبائل البدوية إلى استعمال الصيغ الواوية[4].

الميل إلى الكسر:

فسّر المحدثون ميل بعض القبائل إلى الكسر بأنه ينسجم مع حياة التحضر، ويدل على الرقة في معظم البيئات اللغوية، وأن الضم يتفق وحياة البداوة التي تؤثر الخشونة " فإذا رويت لنا الكلمة بروايتين إحداهما تشمل على ضم في موضع معين من هذه الكلمة، والرواية الأخرى تتضمن الكسر في الموضع نفسه من الكلمة،

---

[1] معاني القرآن: 1/ 174، اللسان: 4/ 478 (صبر).

[2] الخصائص: 1/ 81، واللسان: 15/ 341 (نمي).

[3] اللهجات العربية في التراث: 2/ 572.

[4] في اللهجات العربية: 92.

رجّحنا أن الصيغة المشتملة على الضم تنتمي إلى بيئة بدوية وأنّ المشتملة على الكسر تنتمي إلى بيئة حضرية"[1].

وقد ناوبت اللهجات العربية القديمة بين أصوات المد القصيرة والطويلة، لكن هذا التناوب لا يطّرد في تلك اللهجات جميعها على نحو ثابت، ويندرج ذلك في ضمن سلوك لهجي إذا تكرَّر بشكل ظاهرة لهجية.

وقد آثرت لهجة سُليم الكسر في ألفاظ عدة، على حين آثر غيرها الضم أو الفتح ويمكن عرض النصوص اللهجية التي تنمّ عن هذا المنحى على النحو الآتي:

- رُوي عن بني سُليم ميلهم إلى كسر ميم (مُنذ) فقالوا: (مِنذُ)[2].
- جنحت سُليم إلى كسر همزة (أيان) فقالت (إيان)[3].
- وقالوا في القسم: (إيم الله) وقالت تميم: (ايم الله).
- وقالوا في الآية الكريمة: (فصِرهُنّ إليكَ)[4].
- وذكر ابن جني نقلاً عن ابن أبي إسحاق أنّ لغة بني سليم الشِّجَرَة بكسر الشين[5].
- ومالوا إلى كسر الميم في ضمير جماعة الغائبين إذا تلاه اسم معرَّف بأل[6].

---

(1) لسان العرب: 3/ 510 (منذ)، وينظر: الهمع: 1/ 216.
(2) البحر المحيط: 4/ 434، 7/ 92، الهمع: 2/ 57.
(3) الهمع: 2/ 9 – 40.
(4) معاني القرآن: 1/ 174، اللسان: 4/ 478 (صير).
(5) المحتسب: 1/ 74.
(6) سر صناعة الإعراب: 2/ 558 – 559.

وأغلب الظن أن قبيلة سُليم آثرت الكسر في هذه الألفاظ لارتباطها ببيئة الحجاز الحضرية وصلاتها الوثيقة بقريش، وهيمنتها على طرق التجارة، فهي في ضمن القبائل المتحضرة[1].

تقصير صوت المد الطويل:

ورد في العربية الفصحى إتمام ألف الاسم المقصور عند إضافته إلى ياء المتكلم على حين جنحت بعض القبائل إلى تقصير صوت المد الطويل وهو ألف الاسم المقصور والضغط على ياء المتكلم، ومن القبائل التي عرفت هذه الظاهرة قبيلة سُليم فقد نقل الفراء عن بعض بني سليم قوله: (آتيك بمولَيَّ فإنه أروى مني) [2]يريد بمولاي.

وقد قُرئ قوله تعالى: (**يا بُشْرايَ هذا غلامٌ**) (يوسف: 19): (يا بشرَيّ) وعزا الفراء هذه اللهجة إلى بعض قيس وهذيل، وعزيت إلى طيئٍ وقريش[3].

وفي قراءة عُزِيت لعبد الله بن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وأبي الطفيل[4]: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: 38).

وقال أبو ذُؤيب الهذلي[5]:

سبقوا هَوَيَ وأعنقوا لهواهم   فتُخُرِّموا ولكلِّ جنبٍ مَصرعُ

---

(1) اللهجات العربية في التراث: 1/ 256.

(2) معاني القرآن: 2/ 39.

(3) لهجة هذيل: 201.

(4) مختصر شواذ القراءات: 62، والمقاصد النحوية للعيني: 3/ 3.

(5) معاني القرآن: 2/ 39، وينظر: أوضح المسالك: 3/ 199.

وفسّر الدكتور خليل العطية هذا المنحى في لهجة هذيل على سبيل المماثلة فقال: "وهو ضرب من تأثّر الأصوات بعضها ببعض يعرف بالتّأثر الرجعي وفيه يتأثر الصوت الأول بالثاني"[1] لكن الواضح في هذا المنحى: أنّ السعي إليه هو لأجل التخلص من صوت المد الطويل وتقصيره إلى الفتحة فلو كان الهدف من ذلك المماثلة لفنيت الفتحة التي تسبق الياء أو تغيرت والراجح أنّ الياء في هذه الحال ياء واحدة ساكنة هي ياء المتكلم، أما ألف الاسم المقصور، فاختصرت إلى الفتحة التي تسبقها، أما وصف الفراء لهذه الظاهرة بأنها "كل ألف أضافها المتكلم إلى نفسه جعلتها ياء مشددة"[2] فإن الياء ليست مضعّفة إنما جرى توضيحها بالضغط عليها فحسب.

وهذا المنحى في لهجة سليم ينسجم مع الميل إلى التخفيف وتوفير الجهد العضلي.

الإتبـــاع الحركـــي:

وتعني هذه الظاهرة ميل الحركات المتباينة في الكلمة الواحدة إلى التوافق.

ويعد هذا النزوع ميلاً إلى تقليل الجهد المبذول، ومظهراً من مظاهر التطور الصوتي[3].

ومن مظاهر هذه الظاهرة في لهجة سُليم جنوحها نحو فتح لام الأمر فقالوا: لَيَقُمْ زيد[4].

---

[1] لهجة هذيل: 200.

[2] معاني القرآن: 2/ 39.

[3] في اللهجات العربية: 96.

[4] معاني القرآن: 1/ 285، والبحر المحيط: 2/ 41، ومغني اللبيب: 284.

وعزا ابن مجاهد فتح لام الأمر إلى عُكْل فضلاً عن بني سُليم[1] وأنشد لذلك شاهداً:

لا دناهـــا ومـــا فيهـــا دَنِـــيّ   لَيَرقُـدْ ثُـمَّ يرقُـدْ لـن يُصـارا

والمعروف في العربية الفصحى كسر لام الأمر إذا لم تُسبق بعاطف، ولذلك جنحت سليم إلى الإتباع الحركي، وحدث انسجام بين حركة لام الأمر وحرف المضارعة، وهو أخف من الانتقال من كسرة إلى فتحة.

وعد هذا الضرب من الإتباع في ميلهم إلى الكسر في تراكيب عدة،منها كسر همزة إيان فقالوا: إيان، وكذلك استعمالهم: إيم الله، في القسم بكسر الهمزة.

أداء ضمير الغائبين (هم) :

حكى الفراء عن بعض بني سليم أنهم يكسرون ميم ضمير الغائبين (هم) إذا سبق اسماً معرّفاً بأل [2]، على حين وردت هذه الميم مضمومة في العربية الفصحى على سبيل الإتباع الحركي[3]:

وأنشد قُطرب لعُروة بن الوَرد:

ألا إنّ أصحاب الكنيـف وجـدتهم   هُمِ القوم لمّا أخصـبوا وتمولـوا

وأنشد الكوفيون:

فهُـمُ بطـانتُهم وهـم وزراؤهـم   وهُمِ القُضَـاةُ ومـنهمِ الحكّـامُ[4]

---

[1] مختصر في شواذ القراءات: 180.

[2] سر صناعة الإعراب: 2/ 558 – 559، وشرح المفصل: 3/ 132، وارتشاف الضرب: 1/ 469 – 4790.

[3] فسر ابن يعيش العدول عن الكسر إلى الضم للإتباع، ينظر: شرح المفصل: 3/ 132.

[4] البيتان في (شرح المفصل): 3/ 132.

ويتبين لنا من الشاهدين أن ميم (هم) تكسر إذا وقع بعدها اسم معرف بأل، أما إذا لم يتعرف بأل فإنّ الميم تُرفع على سبيل الإتباع ويمكن تفسير هذا النهج بأنه ميل إلى الكسر وهو الأصل الذي تطور عنه الميل إلى الضم على الإتباع لقصد السرعة في النطق أما في حالة الكسر فلا بد من أناة في النطق تنسجم مع ميل قبيلة سُليم إلى الكسر.

كسر همزة أيّان:

تستعمل (أيان) في أسلوبي الاستفهام والشرط دالة على الظرفية وتأتي همزتها مفتوحة دائماً لكن بني سُلَيْم جنحوا إلى كسرها[1].

وانعكس هذا الأثر اللهجي في قراءة أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ فقرأها مكسورة أينما وردت في القرآن الكريم، جرياً على عادة قومه، فقرأ قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ (الأعراف: 187)، وقوله تعالى: ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (النحل: 21) بكسر الهمزة[2].

(إيم الله) صيغة في القسم:

استُعملت صيغ عدة في أسلوب القسم منها: يمين الله، وأيمن الله، وأيمُ الله وإيم الله[3]، والأخيرة اخصت بها لهجة سُلَيم، ومن الواضح أن الصيغ جميعها ذات دلالة واحدة، ولكن الاختلاف فيها يرجع إلى عادات نطقية تميّزت بها بعض اللهجات عن غيرها.

---

[1] معاني القرآن: 2/ 99، وينظر: إعراب القرآن، للنحاس: 2/ 208، والبحر المحيط: 4/ 434، 7/ 92، وهمع الهوامع: 2/ 57، ونقل الأشموني أنّ القراءة بها شاذة ينظر: شرح الأشموني: 3/ 582.

[2] ينظر في قراءاته: معاني القرآن: 2/ 99، والبحر المحيط: 7/ 92.

[3] همع الهوامع: 2/ 9 – 40.

ومن الطريف أن صاحب (اللسان) ذكر صيغاً عديدة تدل على اختلاف اللهجات العربية القديمة في أدائها وهي: أيمن الله، ولَيْمُنِ الله، وأيم الله، وإيم الله، وأمُ الله، ومُ الله، ومِ الله، ومُنُ الله، ومَنَ الله، ومَ الله، ولَيْمُ الله، وهيْمُ الله[1].

إسناد الفعل المضعّف إلى تاء الفاعل:

عند إسناد الفعل المضعف إلى تاء الفاعل أو احد ضمائر الرفع المتحركة الأخرى يجري فكُّ الإدغام في الفعل، ففي (مدَّ) يصير الفعل: (مَدَدْتُ) وفي (ظلَّ): (ظَلَلْتُ)، هذا هو السائد في العربية الفصحى، لكنّ لهجة سيلم مالت إلى حذف أحد الصوتين المتماثلين عند إسناد الفعل المضعّف إلى تاء الفاعل أو (نا) المتكلمين[2]، ففي ظننت قالوا: (ظَنْتُ)، ويطَّردُ ذلك في: ظَلْتُ ومَسْتُ وما أحسْت وما أحبْتُ وحمل سيبويه هذه الظاهرة على الشذوذ وأنه لا ينقاس فيما أشبه هذه الأفعال[3].

وقد نزل القرآن الكريم كذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗا ﴾ (طه: 97) وفي قوله تعالى: ﴿ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴾ (الواقعة: 65)، وقرأ ابن مسعود وقتادة والأعمش: (ظِلْتُ) (طه/ 97) و(ظِلْتُم) (الواقعة: 65) [4].

وجاء في شعر الخنساء[5]:

فَظَلْتُ لهــا أبكــي بعَــيْنٍ غزيــرةٍ   وقلبـــي ممـــا ذَكَّرتنيـــه موجَـــعُ

---

[1] اللسان: 13/ 462 – 463 (يمن).

[2] ارتشاف الضرب: 1/ 346، اللسان: (حبب) و(ظنن). وينظر: اللهجات العربية الغربية القديمة: 295.

[3] الكتاب: 4/ 422..

[4] مختصر شواذ القراءات: 89.

[5] ديوان الخنساء: 317.

وورد هذا الاستعمال في شعر الشّنفرى الازدي فقال[1]:

وظَلّتُ بفتيان معي أتّقيهمُ بهُنّ قليلاً ساعة ثم خيبوا

ولعل هذا لنهج كان معروفاً لدى غير سليم من العرب بدليل وروده في القرآن الكريم، واستعمال الشنفرى الذي كان على صلة وثيقة بهذيل القريبة من منازل سليم.

والراجح في تفسير هذا النهج أنه ميل للاقتصاد بالجهد العضلي إذ أن الانتقال من صوت لآخر يماثله فيه صعوبة ويحتاج جهداً فآثرت اللهجة حذف احد الصوتين المتماثلين للسهولة وتيسير النطق.

بناء (حيث) على الفتح:

تعدُّ (حيث) من الظروف الملازمة للإضافة إلى الجمل، وقد شاع في العربية بناؤها على الضم، فجاء في العين: "للعرب في حيث لغتان واللغة العالية حيثُ الثاء مضمومة"[2].

ونقل الكسائي عن بني يربوع وطهية من تميم بناءها على الفتح[3] و ذكر سيبويه ذلك ولم ينسبه[4]، لكن الهَجَري عزا فتح الثاء من حيث إلى بني سُليم فهم يقولون: حَيْثَ وبذلك فإن قبيلة سُليم تشترك مع بعض بطون تميم في هذا المنحى، ويمكن تفسير ذلك من حيث الصوت بأنه ميل إلى الإتباع الحركي، فمجاراة لفتحة الحاء فتحوا الثاء، ولا يعد الحرف الساكن بينهما حائلاً دون تحقيق هذه الظاهرة،

(1) شعر الشنفرى الأزدي، (طبع دار اليمامة).
(2) العين: 3/ 285 (حيث).
(3) اللسان: (حيث)، تاج العروس: (حيث).
(4) الكتاب: 3/ 286.

فضلاً عن أن الفتح أخف من الضم، لأنّ في الضم جهداً أكثر، والميل إلى الفتح سمة القبائل المتحضرة، على حين تميل القبائل البدوية إلى الضم.

مـذْ ومُنْـذُ:

اختلفت اللهجات العربية القديمة في شكل (مُذْ ومنذ) فعُزِي ضمُّ ذال(مُذ) إلى بني غنيٍّ وهم حي من غطفان من قيس[1]،وحكى الفراء عن (عُكْل) كسر الميم من (مذ) فقالوا: مِذْ يومان [2]،وذكر اللحيانيُّ في (نوادره) كسر ميم (مِنذ) عن بني سُلَيم[3].

وقد اختلفت اللهجات العربية القديمة في الاسم الواقع بعد مذ ومنذ، فجنحت قبائل تميم وأسد وعُكل وبني غني من غطفان وهوازن وسُلَيم إلى رفع الاسم الواقع بعدهما، فروى صاحب (اللسان) عن سُلَيم: ما رأيته مِنذ سِتٌّ، بكسر الميم ورفع ما بعد (منذ) [4]، أما القبائل التي جرَّتِ الاسم الواقع بعدهما، فهي قبائل ضَبَّة ومُزينة وغطفان والرِّباب وعامر بن صعصعة ومن جاورهم من قيس[5].

واحتدم الخلاف بين النحويين في إعراب الاسم الواقع بعد مذ ومنذ[6]، ويمكن القول إنّ (مذ ومنذ) لهما دلالة واحدة وأن أصلهما واحد، وهو: (مذ) تولدت عنها بفعل قانون المخالفة الصيغة الجديدة لها وهي (منذ)، وليس من المعقول أن

---

(1) التعليقات والنوادر، للهجري، تحقيق الشيخ حمد الجاسر: 33 / 1095 (حيث).

(2) منهج السالك: 256.

(3) اللسان: (منذ).

(4) اللسان: (منذ)، والهمع: 1/ 216.

(5) اللسان: (منذ)، ومنهج السالك: 256، والهمع: 1/ 216، شرح اللمع لابن برهان العكبري: 1/ 190، تاج العروس: (منذ).

(6) الإنصاف في مسائل الخلاف: 1/ 382.

يستعمل العربيُّ الاثنتين معاً للدلالة على الظرفية، فلا شك أنه اقتصر على واحدة بطريقة ورثها عن سالفيه.

إجراء (القول) مجرى (الظن):

جنحت لهجة سليم إلى إجراء القول مجرى الظن، فعاملت الفعل (قال) وتصريفاته معاملة (ظن) الذي عدّه النحويون من الأفعال التي تنصب مفعولين قال سيبويه: " وزعم أبو الخطاب ــ وسألته عنه غير مرة ــ أن ناساً من العرب يوثق بعربيتهم وهم بنو سُلَيم يجعلون باب قُلْت أجمع مثل ظننت[1]. فهم يقولون: قال زيد عمراً منطلقاً ويقول زيد عمراً منطلقاً، وقد وردت شواهد من الشعر لشعراء غير سُلَمِيِّيْن مما يؤكد أن هذا الاستعمال ليس محصوراً في قبيلة سُلَيم وحدها، بل يشيع في عدد من اللهجات الأخرى، فمن ذلك قول امرئ القيس الكندي:

إذا ما جرى شوطَيْن وابتلَّ عِطفُــهُ ... تقُول هَزِيرَ الرّشيح مَرَّتْ بِأثْأبِ[2]

ومن ذلك قول الكميت بن زيد الأسدي

أجُهّـــالاً تقـــول بنـــي لـــؤيٍّ ... لعمـــر أبيـــك أم متجاهلينـــا [3]

وقول عُمر بن أبي ربيعة المخزومي:

أمـــا الرحيـــلُ فَـدُون بعــد غــدٍ ... فمـــا تقـــول الـــدارَ تجمعنـــا

---

[1] الكتاب: 1/ 124، الصحاح: 5/ 1807 (قول) (شرح المفصل): 7/ 79، المقرب: 323، البحر المحيط: 1/ 140، والارتشاف: 3/ 78، والتعليقات والنوادر: 3/ 1095، والجامع الصغير في النحو: 73، ولسان العرب: (يمن)، شرح ابن عقيل: 1/ 449، وخزانة الأدب: 9/ 185.

[2] ديوان امرئ القيس: 53.

[3] من شواهد الكتاب: 1/ 123، 124.

لم أعثر على مثل هذا الاستعمال في شعر عدد من شعراء سليم[1]، والراجح أن هذا الاستعمال كان مألوفاً في لهجة سُلَيم وانتقل إلى غيرها من اللهجات بفعل عوامل الاحتكاك بين اللهجات. وهذا المنحى في استعمالهم فعل القول نابع من فهمهم لمعنى القول بمعنى الظنّ والاعتقاد، وهو ما يَسودُ في بعض اللهجات العراقية المعاصرة.

والسائد في العربية الفصحى كسر همزة (إنّ) إذا وقعت بعد فعل القول، لكن في لهجة سليم ترد هذه الهمزة مفتوحة دائماً واستشهد أبو حيان بقول شاعرهم[2]:

إذا قُلْتُ أنِّي آيبٌ أهلَ بلدةٍ نَزَعتُ بها عنها الوَلِيَّةَ بالبَحْرِ

واجتهد النحويون في وضع الضوابط التي يجري فيها القول مجرى الظن[3] وأضافوا بذلك عبئاً جديداً إلى مجال الخلاف في أنظارهم، فلو عَدّوا هذا الاستعمال محدوداً بوصفه يمثل منحىً لهجياً لكان ذلك أنفى للخلاف، ووضع الضوابط التي لا تتناسب وطبيعة اللغة.

إلزام المثنى الألف:

ذكر بعض النحويين أنّ من العرب من يُلزِمُ المثنى الألف في احواله كلها، وقد عزي هذا المنحى إلى قبائل كنانة وبني الحارث بن كعب وبني العنبر، وبطون

---

[1] من الدواوين التي عدت إليها: ديوان الخنساء وديوان العباس بن مرداس، وديوان خفاف بن ندبة السلمي.

[2] البحر المحيط: 1/ 140، والارتشاف: 3/ 80 ولم أعثر على القائل فيما عُدْتُ إليه من مصادر.

[3] ينظر في ذلك: شرح جمل الزجاجي: 2/ 463، والارتشاف: 3/ 78 – 79، وشرح ابن عقيل: 1/ 446.

من ربيعة وبكر بن وائل وزُبَيْد، وخثعم وهمدان وعُذرة[1]، وأضاف أبو حيان الأندلسي عند حديثه على قراءة: ﴿ فكانَ أبَواهُ مُؤْمِنَانِ ﴾ (الكهف: 80) إذ ذلك لغة لبني الحارث بن كعب وسليم[2]، وفسّروا قوله تعالى: ﴿ إنَّ هَذان لَسَاحرانِ ﴾ (طه: 63) بأنها وردت على لهجة بلحارث بن كعب[3].

وقد عرض الدكتور عبد لعال سالم مكرم أوجه الاختلاف في هذه القراءة وعرض آراء بعض علماء العربية في ذلك وقال: "لا داعي لهذه التأويلات والتقديرات التي تُشَتِّتُ الفكر وتحيِّر العقل وتجعل طالب النحو يعيش في دوّامة من اضطراب الآراء وتناقض الأفكار"[4].

ويُرجِّح أنّ هذا الاستعمال منحًى لهجي عُرِفت به قبائل عدة فلا داعي لكثرة التأويلات التي لا تتناسب وطبيعة الدرس النحوي.

إضافة اسم الفعل (مكانك) إلى ياء المتكلم:

من المعروف أن (مكانك) اسم فعل أمر بمعنى: اثبُتْ والْزَمْ مكانك، ولم يُضَف اسم الفعل إلى ياء المتكلم في العربية، لكنّ الفراء سمع بعض بني سُليم يقول: (مكانَكَني): أي انتظرني في مكانك[5]. فأضافوا اسم الفعل إلى ياء المتكلم وعاملوه معاملة الفعل الذي يُفصل بنون الوقاية حين يتصل بها، وقد رأى الفرّاء أن اللفظ اكتسب معنى جديداً مُساوياً لفظة: انتظرني.

---

(1) ينظر: شرح ابن عقيل (الهامش): 1/ 58 – 59.
(2) البحر المحيط: 6/ 272.
(3) ينظر في القراءة: مختصر شواذ القراءات: 89.
(4) أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية: 68.
(5) الارتشاف: 1/ 470.

وقد وردت طائفة من الألفاظ والتراكيب بدلالات خاصة عند بني سُليم يمكن إجمالها فيما يأتي:

1- نقل صاحب (اللسان) عن الأزهري قوله: " سمعت بعض بني سُليم يقول: كما أنتني: يقول: انتظرني مكانك"[1] والراجح لديَّ أن كلمة: أنتني تعرضتْ إلى قلبٍ مكانيٍّ في بعض اللهجات العراقية المعاصرة فأصبحت (تانيني) وهي تحمل الدلالة نفسها.

2- سأل الجوهريُّ أعرابياً من بني سُليم:ما معنى زُهِيَ الرجل؟ قال: أُعجِبَ بنفسه. وقال له: " أتقول: زَهَى إذا افتخر؟ قال: أما نحن فلا نتكلم به"[2].

3- روى أبو تراب عن بعض بني سليم: تَذَقَّطْتُهُ تَذَقُّطاً وتَبَقَّطْتُه تَبَقُّطاً: إذا أخذته قليلاً قليلاً، وتَبَقَّطْتُ الخَبرَ وتَسَقَّطْتُه وتَذَقَّطته: إذا أخذته شيئاً بعد شيء[3].

4- وقال ابن الفَرج: سمعتُ بعضَ بني سليم يقول: قد رجع كلامي في الرجل ونجع فيه بمعنى واحد، قال: ورجع في الدابة العَلَفُ ونجع: إذا تبيّنَ أثرهُ[4].

5- قال الجوهري لأعرابي من بني سليم: ما العَوهَقُ ؟ قال: الطويل من الرّبد والربد: النبات الطويل[5].

6- وروى ثعلب عن بني سليم: حشَك القوم مياههم حَشَكاً بفتح الشين: اجتمعوا[6] وما تزال المفردة تحمل الدلالة نفسها في بعض لهجاتنا المعاصرة.

---

(1) لسان العرب: (عند) و(انتن).

(2) نفسه: (زها).

(3) نفسه: (بقط)، (ذقط).

(4) نفسه: (رجع).

(5) نفسه: (عهف).

(6) نفسه: (حشك).

7- وروى أبو تُرابٍ عن بعض بني سُليم: فلان محافظ على حسبه ومحافِل عليه إذا صانه[1].

8- وروى أبو تراب عن بعض بني سُليم قولهم: حَمَزَهُ وحَمَظَهُ أي عَصَره[2].

9- قال الفراء: "أتاني وما مَأَنْتُ مانَهُ أي لم اكترث له، وقيل: من غير أن تهيّأتُ له ولا أعددت ولا عملتُ فيه. وقال أعرابي من بني سليم: أي ما علمت بذلك"[3].

10- وقد وردت بعض ألفاظهم في القرآن الكريم منها: نكص بمعنى رجع[4] وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ ﴾ (الأنفال: 48).

11- "وقال أعرابي من بني سُليم لابن له سمّاه إبراهيم: نَاوَيْتُ به إبراهيم:أي قصدت قصده فتبركت باسمه"[5] .

12- وقال الأزهري: سمعت أعرابياً من بني سليم يقول: "الشَّجْبُ من الأساقي: ما تشنَّنَ وأخلقَ: والشَّجْبُ بالسكون: السقاء الذي أخلق وبليّ وصار شنًّا"[6].

13- وقال شارح شعر الخنساء معلقاً على قولها:

يُــؤرِّقني التَّــذَكُّر حــينَ أُمْســي فَيَرْدَعُنِي مــع الأحــزانِ نُكْسِــي

نُكسي: وهي لغتهم، والنُّكْسُ: عود المرض بعد النَّقَهِ[7].

---

(1) لسان العرب: (حفل).

(2) نفسه: (حظم).

(3) نفسه: (ماعن).

(4) لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم: 116.

(5) اللسان: (نوى).

(6) نفسه: (شجب).

(7) ديوان الخنساء: 325.

وبعد هذا الوصف لبعض ملامح لهجة عربية قديمة يمكن القول إنّ لهذه اللهجة خصائص أخرى أغفلها اللغويون، ولم يشيروا إلى كونها تُمثِّل لهجة سليم أو غيرها من اللهجات، وذلك مما يؤاخذون عليه، إذ لو عُزيت النصوص اللهجية إلى قبائل بعينها لأمكن الوقوف على صورة صادقة عبَّرت عن الواقع اللغوي السائد في الجزيرة العربية في الجاهلية وصدر الإسلام.

وعلى قلة النصوص اللهجية التي عُزيت لقبيلة سُليم فإنها أعطت بعض الملامح التي ترجّح أن القبيلة في العديد من خصائصها اللهجية أميلُ إلى التأثر ليس بالحجاز فحسب بل ببعض قبائل اليمن التي جاورتها، ولا شك في أنّ قانون التأثُّر والتأثير قد حقّق بعض نتائجه في ذلك المضمار، إن عناية اللغويين بالبيئات اللغوية الكبرى ومن بينها القبيلة الأم لسُليم وهي قبيلة (قيس) التي اتسعت بطونها، جعلهم يغفلون حقيقة أن قبيلة قيس قد امتدت مواطنها على أرجاء واسعة من نجد والحجاز وأنها في كل موطن تأثّرت بما يُجاورها من اللهجات على الرغم من محافظتها على صفات لهجية مشركة كالإمالة والتلتلة والإبدال والمعاقبة وغيرها، مما لم يتطلب الوقوف عليه، لأنه لا يشمل سُليماً بالذات، بل يشمل قبيلة قيس ببطونها وفروعها المُتّشعبة.

وبعد هذا الجهد المتواضع الذي أقدّمه طلباً لخدمة العربية وتأريخها، وسعياً لترصين البحث اللهجي وإيلائه اهتماماً أكبر من لدن الدارسين، ولاسيما في مجال اللهجات العربية المعاصرة، أقول بعد ذلك كله: الحمد لله إنه نعم المولى ونعم النصير.

الفصل السادس

الجملة الطويلة في القرآن الكريم

الفصل السادس

الجملة الطويلة في القرآن الكريم(*)

حفلت دراسات المحدثين بالجملة وأقسامها وعرضت جهد النحويين القدماء واختلافهم في تقسيم الجملة وتبيين أثرها الثانوي حين تنوب عن المفرد إذ كان هدفهم منصباً على الجملة القصيرة المجتزأة من نص لغوي رفيع كالقرآن الكريم أو الشعر العربي القديم. وظل هدفهم تقريب القواعد النحوية إلى أذهان المتعلمين وسرى ذلك إلى مناهج التعليم على اختلاف مستوياتها وطغت الأمثلة التعليمية على الشواهد الحية في كثير منها.

وقد عني هذا البحث بالكشف عن شكل من أشكال الجملة لم ينتبه إليه الدارسون في أغلب الظن، وهو الجملة القرآنية التي تمتد إلى مساحة قولية كبيرة تكتنف عددا من الجمل القصيرة وذلك عبر آليات تزخر بها اللغة، إن هذه الجملة موجودة في القرآن الكريم والشعر وبعض نماذج النثر الفني، وقد انصب البحث على هذه الجملة في القرآن الكريم بوصفه معين علماء العربية في مجال الاستشهاد.

ويهدف البحث إلى الكشف عن الوسائل اللغوية التي تمتد الجملة بها منها العطف الذي يفصل بين العناصر المتلازمة نحوياً ولاسيما في جملة إن واسمها وخبرها أو المبتدأ والخبر أو الفعل والفاعل،زيادة على ذلك فإنه يكشف عن امتداد الجملة بأساليب لغوية عدة نحو أسلوب الشرط أو القسم أو النداء وجمل أخرى نحو مقول القول أو صلة الموصول وما إلى ذلك.

(*) بحث منشور في مجلة دراسات نجفية، جامعة الكوفة السنة الأولى، العدد الثاني، 1424هـ / 2004م.

إن هذه الطريقة في النظم لا تتاح إلا لمن امتلك اللغة وخبر أسرارها ومما بعد فهي وسيلة لغوية راقية تشدّ المتلقي وتشوقه إلى تمام الجملة، لذلك يبقى القرآن الكريم مثالا رائعاً يقتدى به في مجال بناء الجملة الطويلة ولاسيما بلغة الأدب والشعر.

إن هدف البحث ليس استقراء الجمل الطويلة في القرآن الكريم بقدر ما عني بالتوكيد على الآليات والأساليب التي تمتد بها الجملة لتتخذ مثالاً في مجال الإبداع الفني لما فيها من جمال في التأليف قل نظيره.

الجملة في النظر النحوي:

ليس بجديد البحث في مفهوم الجملة فقلما نجد كتاباً في النحو خلا من ذكر الجملة وعناصرها لأنها المادة النحوية الأولى في النحو العربي. وأول كتاب بين أيدينا ألمّ بالجملة وعناصرها إلماماً كاملا هو كتاب سيبويه الذي جاء فيه: "هذا باب المسند والمسند إليه وهما ما لا يغني واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بُدّاً فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه وهو قولك: عبد الله أخوك، وهذا أخوك ومثل ذلك: يذهب عبد الله فلا بد للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم بُدٌّ من الآخر في الابتداء، ومما يكون بمنزلة الابتداء قولنا: كان عبد الله منطلقاً وليت زيدا منطلق، لأنّ هذا يحتاج إلى ما بعده كاحتياج المبتدأ إلى ما بعده"[1].

فقد ذكر سيبويه حقيقة الجملة بكاملها في كونها مادة المتكلم التي يحتاج إليها للتعبير، وقد اجتزأ أصغر وحدة لغوية تدل على معنى ومثّل لها بقوله: عبد الله أخوك وهذا أخوك، وهما جملتان اسميتان، وجملة يذهب عبد الله وهي فعلية، وذكر ما يكون بمنزلة هذه الجمل مما يحتاج إلى ما يكمل معناه ومثّل له بقوله: كان عبد الله منطلقاً، وليت زيداً منطلق، وحدد كذلك عنصري الجملة وهما المسند إليه وهو

---

(1) الكتاب: 1/ 21.

المتحدّث عنه وهو محور أية جملة، والمسند وهو ما يبني على المسند إليه أو ما يخبر به عنه.

إنّ نص سيبويه صريح بتضمنه مفهوم الجملة وفحواها مما تعاقب اللاحقون من النحويين على تفصيله، لكن اللافت للنظر أن سيبويه اعتمد أمثلة تعليمية لتحديد ذلك المفهوم وذكر عناصره.

وعلى نهج سيبويه خص ابن جني عناصر الجملة بالحديث فقال: "الجمل إنما تتركب من جزأين: إما اسم واسم نحو: المبتدأ وخبره، وإما فعل واسم نحو الفعل والفاعل وما أقيم من المفعولين مقام الفاعل، ولا بد في كل واحدة من هاتين الجملتين إذا عقدت من اسم يسند إليه غيره"[1].

وقد أطلق مصطلح (الكلام) مرادفاً الجملة المفيدة غير واحد من النحويين منهم ابن جني الذي يرى أن صورة الجمل وهو ما كان من الألفاظ قائماً برأسه غير محتاج إلى متمم له، فلهذا سمّوا ما كان من الألفاظ تاماً مفيداً كلاماً[2]. وإلى ذلك ذهب عبد القاهر الجرجاني فقال: "وإنما سمي كلاماً ما كان جملة مفيدة نحو: زيد منطلق وخرج عمرو[3]. وذهب الزمخشري إلى أن مصطلح الجملة والكلام يترادفان[4]، وتابعه ابن يعيش وقال " الكلام عبارة عن الجمل المفيدة وهو جنس لها فكل واحدة من الجملة الفعلية والاسمية نوع له ويصدق إطلاقه عليه"[5].

---

(1) سر صناعة الإعراب: 1/ 288.

(2) الخصائص: 1/ 22.

(3) المقتصد: 1/ 68.

(4) المفصل: 6.

(5) شرح المفصل: 1/ 21 .

وخالف ابن هشام بعض متقدمي النحويين فيما ذهبوا إليه ورأى أن المصطلحين غير مترادفين وإنما الجملة أعم من الكلام وآخذ الزمخشري لأنه رادف بينهما وحجته في ذلك أن الجملة أعم لأنّ شرط الكلام الإفادة والجملة غير مفيدة أحياناً فقال: "ولهذا تسمعهم يقولون جملة الشرط وجملة الجواب وجملة الصلة وكل ذلك ليس مفيداً فليس بكلام"[1]. فالكلام على رأيه هو اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها لذا فالجملة تطلق على المفيد وغير المفيد والكلام يطلق على المفيد فهو أخص منها.

وقد ثبت في دراسات النحويين أن مصطلح الجملة هو الذي استقر وهي التي تؤدي معنى تاماً لا يخرج في أصغر صوره عن أن يكون جملة اسمية أو جملة فعلية، ومجمل آراء النحويين لا يخرج عما قرره الخليل وسيبويه في أن الجملة أما أن تكون اسمية أو فعلية وهي أصغر وحدة نحوية دالة على معنى.

إن اجتزاء الجملة بصورتها البسيطة جاء لتيسير القاعدة النحوية وضبط أحكامها ثم جرى البحث في عناصر الجملة من مبتدأ وخبر وفعل وفاعل وغيرها من العناصر بالاعتماد على الجملة المجتزأة، وقد غلب على هذه الجمل أنها جمل مصطنعة اصطنعها النحاة للتمثيل وتقريب القاعدة النحوية للدارسين ولا تخرج هذه الجمل عن الأمثلة التعليمية الكثيرة التي زجها النحاة في أثناء دراساتهم النحوية وبالغوا في هذا النهج فاصطنعوا أمثلة لا نظير لها في عربيتنا الفصحى.

وقد اجتهد النحويون في تقسيم الجمل فذهب أبو علي الفارسي وتبعه الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى أنه أربعة أقسام هي الاسمية والفعلية والشرطية والظرفية[2]. ونقل الزمخشري عن أبي علي الفارسي قسمة الجملة على أربعة

(1) مغني اللبيب:2/ 419.

(2) المقتصد في شرح الإيضاح: 1/ 273 – 274.

أقسام: فعلية واسمية وشرطية وظرفية[1]. وقسمها ابن هشام تقسيماً على أنه اسمية وفعلية وظرفية[2]. زيادة على ذلك قام بتقسيمها على وجه آخر هو وقوعها موقع المفرد فهي جمل لها محل من الإعراب وجمل لا محل لها من الإعراب[3]. وقد شاع بين المحدثين أن هذا التقسيم ابتدعه ابن هشام لكن الحقيقة أن هذا التقسيم سبقه إليه ابن جني وابن يعيش وغيرهما[4].

وقسمت الجملة على جملة صغرى وجملة كبرى وعرف لدى الدارسين أن هذا التقسيم من اجتهاد ابن هشام وقد سبقه ابن يعيش إلى هذا التقسيم فقال في باب الاشتغال: "فإذا قلت:زيد لقيته، ففيه جملتان إحداهما اسمية وهي الجملة الكبرى التي هي المبتدأ والخبر وهي (زيد لقيته) بكمالها، والثانية فعلية هي الخبر الذي هو (لقيته) وهي الجملة الصغرى، فالجملة الأولى لا موضع لها من الإعراب لأنه لم تقع موقع المفرد والجملة الثانية لها موضع من الإعراب لأنه وقعت موقع المفرد الذي هو الخبر في: زيد قائم وشبهه"[5].

إن هذا التقسيم يراعي أن يكون في الجملة طرفان أحدهما يكمل الآخر فالخبر إما أن يكون بسيطاً وبهذه الحال تكون الجملة صغرى مثل: زيد قائم أو تكون الجملة محتوية على جملة أخرى تقوم مقام الخبر فتصبح الجملة جملة كبرى حين تتنوع عناصر الإسناد فيها ويكون للصغرى دور ثانوي. وعلى الرغم من انتباه ابن يعيش إلى هذا الضرب من الجمل لكنه يختار مثلاً تعليمياً لتوضيح ما يرمي إليه.

---

(1) شرح المفصل: 1/ 88.
(2) مغني اللبيب: 2/ 43.
(3) نفسه: 2/ 46.
(4) شرح المفصل: 2/ 33.
(5) نفسه: 2/ 33.

إن تعريف الجملة بأنها "الصورة اللفظية الصغرى للكلام المفيد.. هي المركب الذي يبين المتكلم به أن صورة ذهنية كانت قد تألفت أجزاؤها في ذهنه، ثم هي الوسيلة التي تنقل ما جال في ذهن المتكلم إلى ذهن السامع[1]، يقيد الجملة المجتزأة التي تتألف من عنصرين مبتدأ وخبر وفعل وفاعل ويجعل الاهتمام ينصب على الجملة التعليمية التي أنشأها النحاة. وعلى الرغم من أن توجه النحاة إلى المثل التعليمي لا يعد مأخذاً لكنه حجب النظر عن واقع الجملة في اللغة الحية وهي لغة القرآن الكريم ولغة الشعر العربي بعصوره كلها، فهنالك أمثلة عدة تبين أن لغة القرآن والشعر وبعض النماذج الرفيعة من النثر جاءت فيها الجملة معقدة وممتدة إلى مساحة قولية تكتنف جملاً قصيرة هي عناصر الجملة الطويلة.

وإذا ما أخذنا بالحسبان الفائدة المتحققة من الجملة فإن هذه الفائدة لا تتحقق في بعض الجمل إلا عبر امتدادها بوساطة تنوع أحد عنصريها وتعدده فيأتي المبتدأ ويتأخر الخبر عبر مساحة من القول تشغلها جمل قصيرة.

وقد أخذت بعض وسائل اللغة وآلياتها دورها في امتداد الجملة في القرآن الكريم في أنماط من البناء الجملي الطويل الذي تحقق في القرآن في مواضع متفرقة سيكشف البحث عن قسم منها لما لها من أثر واضح في ما نذهب إليه.

أنماط الجملة الطويلة في القرآن الكريم:

1- جملة إن واسمها وخبرها:

وردت الجملة طويلة من استعمال إنّ واسمها وتأخر خبرها بعد مساحة من القول وفي ذلك يكون للعطف أثر مهم في الامتداد والربط بين عناصر هذه الجملة ففي قوله تعالى جدُّه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ

[1] في النحو العربي نقد وتوجيه: 31.

بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ (النساء:/ 150-151).

فامتدت الجملة المؤلفة من إن واسمها وخبرها وذلك بفعل أنّ اسمها اسم موصول (الذين) الذي يستدعي صلة الموصول هي جملة (يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ) وبوساطة العطف بالواو تنوعت هذه الصلة وهي:

﴿ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾

﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾

﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

فقد فصل بين اسم (إنّ) وخبرها الذي يتصدر الآية التالية وجاء جملة اسمية هي ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾.

إن تنويع صلة الموصول جاء يشمل الكافرين في صفاتهم جميعها وقد ترك تشوّقاً لدى المتلقي ليعرف خبر إنّ سواء أكان من المؤمنين أم من الكافرين. إن الفائدة لا تتحقق من الجملة إلا بعد تمامها فقد انضوت تحت هذه الجملة الطويلة جمل قصيرة تراكمت بوساطة العطف لتستوفي المعنى بأقطاره جميعها وتحقق عنصر التشويق لدى السامع أو القارئ.

ومما جاء على هذا النمط قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ (المؤمنون: 57 – 61).

فيما تقدم جاء اسم (إنّ) اسماً موصولاً (الذين) الذي استدعى صلة الموصول فتنوعت وتكرر الاسم الموصول ويمكن تبين هذا البناء لو رتبنا الآيات بشكل عمودي لنرى امتداد الجملة وطولها والمساحة التي شغلتها:

إِنَّ + ٱلَّذِينَ + هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ

وَ+ ٱلَّذِينَ + هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ

وَ+ ٱلَّذِينَ + هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ

وَ + ٱلَّذِينَ + يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ

أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ .

فقد بنيت هذه الجملة الطويلة على إنّ واسمها الذي جاء اسماً يفتقر إلى صلة ساهم في مد الجملة وتكرر هذا الاسم أربع مرات وجاءت صلة الموصول في توازن نحوي بين عناصر التركيب ابتداءً بضمير جماعة الغائبين (هم) والجار والمجرور المتعلق بما بعده على الرغم من أنه ليس توازناً كاملاً يشمل الآيات كلها.

إنّ التنويع في صلة الموصول وتأخير خبر (إنّ): ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ عبر مساحة قولية كبيرة زيادة على أن خبرها جاء جملة تصدرها اسم الإشارة (أولئك) الذي امتلك شحنة إشارة عالية إلى (الذين) وصلتها في أربع آيات من الأمور التي جعلت الجملة طويلة، وهذا الطول في الجملة خلق تشوّقاً للقارئ لمعرفة الخبر وهذا ما تفتقر إليه الجمل التعليمية وهو من الأمور التي تدل على متانة العبارة القرآنية وحسن سبك الألفاظ فبقيت عناصر التركيب يتعلق بعضها ببعض بوساطة العطف بالواو.

ومما جاء في محال جملة إنّ واسمها وخبرها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ (البقرة: 164).

فحين نمعن النظر في الآية الكريمة نجد المعنى لا يستقيم إلا بتمامها فالآية مؤلفة من (إنّ) وخبرها المتقدم الذي تنوع بوساطة العطف وتأخر اسمها الذي دخلت عليه اللام وهو قوله تعالى ﴿ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾. ولو وزعنا الآية الكريمة بطريقة عمودية لأمكن أن نتبين أثر العطف في امتداد الجملة وطولها:

إِنَّ + فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ

وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ

وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ

وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ

وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ

وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

إنّ هذا التنوع من الجمل نصطلح عليه بالجملة الطويلة المعقدة في تركيبها التي تكتنف جملاً قصيرة لها دور في امتداد الجملة وإثارة التشوق لدى المتلقي بما يثير انبهاره بآيات الله سبحانه، فلا يمكن اختصار هذه الجملة ولا يمكن الاستغناء عن أي جزء من أجزائها وإن العطف جاء ليعطي صورة جديدة في كل مرة من صور القدرة الإلهية العظيمة المتمثلة بآيات الله وقدرته التي لا تحدها حدود.

2- جملة الشرط:

ومن أمثلة الجملة الطويلة في القرآن الكريم جملة الشرط التي تستدعي في بنائها أداة شرط وفعل شرط وجوابه ففي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة: 24).

إنّ المتأمل في الآية الكريمة يرى فيها ضرباً من البناء الجملي الطويل الذي تتآزر فيه جملة الشرط المؤلفة من أداة الشرط وفعل شرط وجوابه المتأخر، وجملة كان الناقصة واسمها الذي يتنوع بوساطة العطف فيأتي خبرها متأخراً فتنوع اسم كان في قوله تعالى: ﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ

ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ ﴾. وجاء خبر كان اسم تفضيل تطلب إطالة في الكلام وهو ﴿ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ ﴾. وبعد أن تتم جملة كان واسمها وخبرها التي شكلت بدورها فعل الشرط تأتي جملة جواب الشرط وهي قوله عز وجل: ﴿ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ ﴾.

إنّ هذا البناء الذي يزخر بثراء لغوي لا يمتلكه أيٌّ كان قادر على شدّ بعضه ببعض عبر استعمال آلية العطف، زيادة على ذلك فإن جملة مقول القول التي يعدها بعض النحويين جملة المفعول به تؤدي إلى مدّ الجملة ليس في هذا الموضع من القرآن الكريم فحسب بل في مواضع عدة من القرآن نحو سورة الناس وسورة الفلق وسورة الإخلاص وسورة الكافرون والأقوال التي رويت على ألسنة الأنبياء لأقوامهم وغيرها التي جاء فيها فعل القول أو ما يرادفه في القرآن الكريم بأسره.

وقد امتلك أسلوب الشرط مكاناً مهماً في مجال إطالة الجملة فالمعروف أن الشرط يقوم على أداة الشرط وفعل الشرط وجواب الشرط وقد حرص النحاة في أمثلتهم التعليمية على أن يأتي الشرط وعناصره في صورة اتصال بينها، لكن وردت في القرآن الكريم بعض المواضع التي امتدت فيه جملة الشرط امتداداً طويلاً إلى مساحة من القول كبيرة، ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ

كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ (التكوير: 1-14).

فقد جاءت أداة الشرط وبعدها جملة فعل الشرط في اثنتي عشرة آية وهي تدل على ما يجري في يوم الحشر عبر تنوع الشرط لكن جواب الشرط يأتي متأخراً وهو قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ عبر مساحة من قول كبيرة يصلح هذا الجواب لأفعال الشرط جميعها ذلك لأنّ هذه الأفعال تحدث مجتمعة في وقت واحد والله أعلم. وقد تحقق عنصر التشويق بوضوح عبر امتداد جملة الشرط هذه وقد تحقق في كل فعل من أفعال الشرط ما يمكن الاستغناء عنه لأنه يعطي حدثاً مهما وبذلك تتعلق أفعال الشرط بعضها ببعض بوساطة العطف عبر توازن نحوي يكاد يكون متماثلاً في الآيات جميعها.

3- جملة القسم:

ومن وسائل مدّ الجملة أسلوب القسم الذي يستدعي مقسماً به وجواباً له وقد عني النحويون في أمثلتهم التعليمية بأن يكون جواب القسم بعد المقسم به مباشرة من غير فصل لكن ورد نمط آخر للقسم يتنوع فيه المقسم به وتأخر جواب القسم ليكون جملة طويلة نحو قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس: 1-10).

فتنوع المقسم به عبر سبع آيات وجاء جواب القسم متأخـرا في قوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ ولم يكن جواباً واحداً. إنّ هذا

الامتداد في الجملة يعطي أسلوب القسم قدرة كبيرة على التأثير في المتلقي عبر تنويع المقسم به وتأخير الجواب بعد مساحة قولية متماثلة في تراكيبها إلى حد ما سواء في بنائها النحوي أم في بنائها الصرفي في معظم الآيات ليتحقق التوكيد بهذه الطريقة البليغة.

4- جملة النداء:

يشكل النداء في القرآن الكريم وسيلة لمد الجملة وإطالتها إذ يؤلف المنادى من أداة النداء وسيلة لغوية للتنبيه لما سيأتي بعد ذلك من أمر أو نهي أو دعاء أو استفهام أو غيرها من أساليب الطلب وذلك في آيات متلاحقة في مواضع عدة من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (آل عمران: 192-194).

فجاء النداء متكرراً ويمتد به القول حين يكون جوابه جملاً من الدعاء المباشر وغير المباشر وهذه الطريقة في البناء تستدعي التنويع في جواب لنداء الذي تحقق بعد مجيء قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا ﴾ (آل عمران: 191) وزاد في تماسك جواب النداء تكرار الضمير (نا) في خمس عشرة مرة في أربع آيات مما يدل على زيادة في الطلب من جهة ويدل على قدرة رفيعة في التعبير عن إيمان هؤلاء جميعهم.

إن هذه الشواهد البليغة التي جاءت لتسند ما ذكرناه من أن الجملة في القرآن الكريم امتلكت صفة الطول والامتداد، إن الشواهد هذه لها نظائر أخرى في القرآن وفي مصادر اللغة العالية من شعر ونثر وهي كافية لأن تكشف عن صورة للجملة العربية لم تألفها كتب النحويين التي حفلت بالأمثلة التعليمية وأعطت الجملة القصيرة حيزاً كبيراً.

وقد تبين من البحث أن امتداد الجملة طريقة في التعبير لا تتاح إلا لمن خبر اللغة وامتلك ثراءها وعرف أسرارها إذ ان هذا النوع من الجمل يتكون من جمل قصيرة تترابط فيما بينها بأحكام بطريقة تجعل أحد عنصريها بعيداً عن الآخر وعلى المتلقي المرور بعدد من الجمل حتى يصل إلى العنصر المتمم للفائدة.

وقد حفل القرآن الكريم ببناء لغوي محكم في جميع الأنساق التي وردت فيه والجملة الطويلة ضرب من ضروب التعبير المعجز الذي لا يضاهيه نص لغوي آخر لذا فلا بد من مراجعة جديدة لهذا الكتاب العظيم وأن نتبين بناءه اللغوي المعجز استكمالاً للدراسات القرآنية العديدة التي اتخذت من القرآن الكريم مصدراً لها.

المصادر والمراجع

1. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تح هـ. ريتر، استانبول، 1954.
2. الخصائص لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990.
3. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد محمود شاكر، القاهرة، 1984.
4. سر صناعة الإعراب، ابن جني، تحقيق: د. حسن هنداوي، ط الثانية، دمشق، 1993.
5. شرح المفصل لابن يعيش، عالم الكتب، بيروت، د.ت.
6. في النحو العربي نقد وتوجيه، د. مهدي المخزومي، ط الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، 1964.
7. الكتاب، سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، دار القلم، 1966.
8. مغني اللبيب، لابن هشام، تحقيق مازن المبارك، دار الفكر، 1985.
9. المفصل، للزمخشري، ط أمين الخانجي، مصر، 1323هـ.
10. المقتصد في شرح الإيضاح، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: د. كاظم بحر المرجان، بغداد، 1982.

الفصل السابع

اللغة في الشعر

الفصل السابع

اللغة في الشعر(*)

سلك النقاد طريقاً جديدة في دراسة الشعر تعتمد على دراسة لغة الشعر لما فيها من خصائص تميزها عن لغة النثر أو لغة العلم وأصبح من البديهي أن لغة الشعر تختلف عن اللغة العادية لوجود خصائص تعبيرية أو أسلوبية تميزها عنها.

واتجهت الدراسات إلى العناية بلغة شاعر بعينه لأنّ لكل شاعر أسلوبه الخاص الذي يوظف اللغة بمجالاتها كلها لتخدم الطاقة الانفعالية التي تكمن في الشاعر نفسه فلا شك في أن لغة الشعر عند السياب تختلف عنها عند شاعر آخر كالمتنبي أو البحتري أو غيرهما.

وبالغ بعض الدراسين فعني بدراسة لغة القصيدة وذهب إلى أن لكل قصيدة لغتها الخاصة بها لأنها تعبر عن موقف انفعالي معين قد لا يتكرر فالآليات التي يوظفها الشاعر في هذه القصيدة تختلف عن الآليات الأخرى التي يوظفها في القصائد الأخرى.

وقد صدرت دراسات عدة اتخذت من لغة الشعر عنواناً وعلى الرغم من اختلاف مناهجها وأدواتها في الكشف عن خصائص النص الشعري لشاعر معين أو نصوص شعرية لعدد كبير من الشعراء تبقى دراسة الشعر تنصب على الخصائص اللغوية للنص التي تتناول جوانب الصوت والصرف والنحو والدلالة لتكون أساساً لأية دراسة تكشف القيم الفنية والجمالية للنص الشعري، وهكذا فالذي طغى على دراسات من هذا النوع أنها انخرطت في اتجاهين هما:

(*) بحث منشور في مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية، المجلد 6، العدد1، 2001م.

اتجاه يدرس الجانب اللغوي للنص واتجاه يعنى بالجانب الفني له مع الأخذ بالحسبان أن الاتجاهين كليهما يقترضان آليات من الآخر إذ إن الإحاطة بآليات الجانبين معاً في دراسة الشعر من الصعوبة بمكان.

وقد حاولت أن اختار عنواناً يثير أكثر من سؤال وهو (اللغة في الشعر) وهو يقرب في بعض مراميه من مصطلح (لغة الشعر) الذي أصبح عنواناً للعديد من الدراسات النقدية والأسلوبية لذلك فإني أعني بـــ(اللغة في الشعر) اللغة بمجالاتها الأربعة، الأصوات والصرف والنحو والدلالة وما ينجم عنها من علاقات ولا ابتغي فصل كل مجال عن أخيه فالمجالات كلها تتواشج فيما بينها فلا ينفصل جانب من الجوانب إلا لتبين سمة تطغى على غيرها أو تشد القارئ دون غيرها. فاللغة أداة الشاعر فكيف يتصرف بها؟ وهل تسيطر عليه بقوانينها وآلياتها وهو الذي يتحكم فيها كيفما يشاء؟ وما وظيفة الكلمة في الشعر؟ وما امكانات وضعها في مصاحبات لغوية جديدة؟ وهل توجد كلمة شعرية وأخرى غير شعرية؟ وما الذي يتحكم في ذلك؟.

وذلك يجعل للغة الشاعر الخاصة به كياناً ملتصقاً بذاته ليس من السهل فصل أحدهما عن الآخر لأنّ كليهما يعتمل في الآخر، فالشاعر يمنح اللغة حياة جديدة متدفقة عبر زجها في قنوات جديدة من الاستعمال، وفي الوقت نفسه تبقى اللغة الأداة المهيمنة عليه بقوانينها المألوفة ولذا فشاعرية أي شاعر تكمن في ثرائه اللغوي ودرايته بأساليب اللغة وأسرارها وكلما تمكن من اللغة استطاع أن يحلق في فضاء أوسع لا يصعب عليه التعبير عن أي انفعال يعتريه وهو يعاني ولادة القصيدة.

اللغة أداة الشاعـــر:

عدّ أرسطو اللغة أداة الشاعر مثلما الحجر أداة النحات والخطوط والألوان أداة الرسام وذلك حين تعرض لصلة كل من هذه الفنون بالأداة التي توظف لأدائه[1] بوصف هذه الفنون أنواعاً من المحاكاة لكنه لم يتطرق إلى التفاوت الموجود في استعمال هذه الأدوات وأي منها أصعب من غيره لأنّ حديثه جرى فيما بعد على أصول فن المأساة.

ويرى بعض بعض الفلاسفة المعاصرين أن اللغة لا تكون طيعة للشاعر في أحيان كثيرة وعلى الشاعر – كما يرى جان بول سارتر– "ترويض شراستها وفي محاولته تلك يكون أشبه بمن يطلق رصاصات قد تصيب هدفها أولا تصيب، واللغة في الشعر تتشكل على حسب بنائها الذي تتآزر فيه قدرة الشاعر على جمع شتات معارفه الواعية من خلال النسيج اللغوي الملتبس بتركيب القصيدة"[2].

ويمكن تفسير الإخفاق في التعبير عن خلجات النفس لدى الشاعر في أحيان وقدرته العظيمة على الإبداع في أحيان أخرى، وما يقال عن خيانة التعبير لدى الشاعر بكونه يكمن في عدم تمكنه من أداته (اللغة) وتكون اللغة في أحيان أخرى عاجزة عن الإفصاح بما يعتمل في ذهن الشاعر فيلجأ إلى تعويض هذا القصور بالإحالة على الدلالات التي تستنبط من الألفاظ"[3].

إن النحات أو الرسام يستطيع أن يتصرف باداته الفنية أكثر بكثير من الفنان الذي يتخذ من اللغة أداة لفنه ذلك لأنّ للغة قوى تنبع من أعماق التاريخ تسيطر علينا ففي الوقت الذي لا يستطيع أن يخرج عن العرف السائد في استعمال اللغة

---

[1] كتاب الشعر، أرسطو (ترجمة د. أحسان عباس): 19.

[2] نقلاً عن دراسة في لغة الشعر، د. رجاء عبد: 18.

[3] نفسه: 8.

تدفعه موهبته للتحايل على اللغة فيخلق علاقات جديدة بين كلماتها يتحرر من قيودها فقد "يتوهم الكاتب أو المتكلم أنه هو الذي يستخدم الكلمات وليست الكلمات هي التي تستخدمه لكنه في الواقع أمام سور صيني من الأفكار الراسخة وإن كانت غير شعورية تمتد في النحو والمفردات والممارسات البلاغية لأداته التعبيرية"[1].

وعلى الرغم مما يحمله النص السابق من مبالغة في بعض الجوانب لا يخلو من صدق على موقف الشاعر أمام اللغة، فلكي يرتادها عليه أن يكون على بينة من أسرارها وخفاياها ومواضع جمالها وعليه أن يمتلك دراية واسعة بوسائل التعبير فيها وطرائق بنائها وتركيبها ودلالتها. فليس المطلوب من الشاعر الإفصاح عن كل شيء فهو يصدمنا كمتلقين بطائفة من الصور والرموز التي تكون اللغة المعبرة عنها وعلينا كي نصل إلى ما يريد الشاعر أن نقوم بتحليلها ولاشك في أن فهم علاقات الألفاظ بعضها ببعض يعد أمراً لا يمكن أن يفهم الشعر بدونه.

ومن هذا الجانب اختلفت لغة العلم عن لغة الشعر فالعلم يستعمل اللغة للتعبير عن الحقائق بصورة مباشرة ومعان صريحة لكن الشاعر يعبر عن نفسه بطريقة التناقضات والمفارقات بنحو غير مباشر "بالمواربة في اللغة التي تخلق معانيها أثناء مضيها وحركتها"[2].

ويكاد يتفق معظم الدارسين على أن الطريقة التي يستعمل بها الشاعر اللغة تمثل "صفته المميزة الوحيدة أو صفتها الكبرى الفارقة"[3].

---

(1) اللغة في الأدب الحديث، جاكوب كورك: 26.

(2) مناهج النقد الأدبي، ديفيد ديتش: 255.

(3) نفسه: 243، من بينهم عباس محمود العقاد في داسته عن ابن الرومي، والدكتور طه حسين في حديث الأربعاء وادونيس في بحثه (في الشعرية) المنشور في ضمن قضايا الشعر العربي المعاصر: 205.

أما في مجال الموازنة بين اللغة في الشعر واللغة في النثر فلم يغب عن الدارسين القدماء وجود أكثر من سمة تميز إحداهما عن الأخرى، فيكمن الاختلاف بين الشاعر والناثر في أن الشاعر يحمل لغة مركزة لها نظام عروضي خاص ويحتاج إلى موسيقى الشعر ويبتعد عن المباشرة في التعبير[1] فضلاً عن أن الشعر نفسه يتفاوت تبعاً لطبيعة الانفعال لكنه بشكل عام أقصر من نفس الناثر فالقصيدة تتحدد بعدد أبياتها أما الرواية فتتحدد بعدد صفحاتها وهنالك بون واسع في طرائق التعبير التي ينتجها الكاتب الراوي مثلما يمتلك طريقة غير تقليدية في استعمال اللغة أيضاً[2].

وقد وجد النقاد القدماء صعوبة في الشعر فأباحوا للشاعر حرية الخروج عن معايير اللغة العادية فكانت الضرورة الشعرية تمثل انحراف الشاعر عن خصائص اللغة العادية[3].

إن قدرة الشاعر في التأثير تأتي من خلال قدرته على خلق علاقات جديدة بين الألفاظ وخلق صور شعرية تشع بالحياة وتكون معياراً للمفاضلة أو الفكرة ففي القصة أو الرواية مثلاً نهتم بتسلسل الأحداث بشكل غير منفصل مما يخلق فرقاً في التأثير والتذوق في آن واحد بين الشعر والنثر.

إن الشاعر في القصيدة يتقيد بالوزن والعروض لكنه يخرج عن أسار ذلك باستعمال المفردات في علاقات جديدة تتم عبر وضع المفردات في علاقات جديدة وانساق متباينة تسمح له بالتحرر من ذلك الأسر وقد عبر الخليل بن أحمد الفراهيدي عن قدرة الشاعر على التصرف باللغة بقوله: "الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا وجائز لهم ما لا يجوز لغيرهم"[4].

---

(1) التركيب اللغوي لشعر السياب، د. خليل العطية: 19.

(2) اللغة في الأدب الحديث: 26.

(3) التركيب اللغوي لشعر السياب: 19.

(4) مناهج البلغاء وسراج الأدباء لابن حازم القرطاجني: 143 - 144.

ونبه ابن جني على اختلاف لغة الشعر عن غيرها فقال: "الشعر موضع اضطرار وموقف اعتذار وكثيراً ما يحرّف الكلم عن أبنيته وتحال فيه المثل عن أوضاع صيغها لأجله"[1].

وأطلق المحدثون مفهوم الانحراف على لغة الشعر لكونها تخرج على سمت اللغة العادية أو اللغة المعيارية ويرادف هذا المصطلح مصطلح الإزاحة أو الانزياح عند الغربيين ولاسيما عند جان كوهن[2].

وقد فسر الشاعر الفرنسي لويس أراكون فكرة الانزياح بقوله "يوجد الشعر بالقدر الذي يوجد به تفكير في اللغة وإعادة خلقها في كل خطوة مما يتطلب تحطيم إطار اللغة الثابت والقواعد والقوانين وهذا هو من عمل الشعراء يقطعون شوطاً بعيداً في سبيل الحرية"[3].

والانزياح أو الانحراف بحد ذاته شذوذ عن الاتفاقات التي تواضع عليها متكلمو لغة ما في الماضي والحاضر وتصدى لها عشوائياً باتفاقات جديدة يعرفها كاتب واحد[4].

إن اللغة في الشعر وثيقة الصلة بالانفعال فالشاعر حين يروم التعبير عن رؤاه الداخلية وانفعالاته يسعى إلى تغيير بعض قوانيين اللغة ليقيم بنية جديدة ذات نسق وتركيب لغوي خاص، وعلى الرغم من أن المادة هي اللغة ذاتها فإن التعبير الشعري بعناصره المتجاورة يرمي إلى تكوين علاقات ونتائج لغوية جديدة، فحين يعبر الشاعر عن انفعالاته ومعاناته عبر استعمال التعابير المجازية والصور

---

(1) الخصائص: 3/ 188.
(2) بنية اللغة الشعرية: 23.
(3) مقدمة الديوان (الزا وعيون الزا): 23.
(4) اللغة في الأدب الحديث: 25.

الشعرية التي تخلق علاقات لغوية ليس في مجال النحو فحسب بل في مجال الصرف والدلالة وغيرهما[1].

وينبغي لمن يتعرض إلى دراسة اللغة في الشعر أن يولي اهتمامه للعديد من الظواهر اللغوية في النص الشعري سواء في مجال استعمال كلمة من دون مرادفاتها أم في استعمال صيغة من دون أخرى أم في الطرائق التي يبني بها الشاعر جملته الشعرية فضلاً عن عنايته بدراسة الأنماط التركيبية والأساليب والوقوف على ظواهر أسلوبية كثيرة وهذا الجانب يمهد لدراسة الجانب الفني لدى الشاعر نحو دراسة الموسيقى والوزن والقافية والصورة وغيرها[2]. ولذا فقد وصف ياكوبسن الشعر بأنه "لغة نظمت بطريقة خاصة"[3] أو هو "لغة داخل لغة"[4].

ويرى هيدجر أن الشعر "لا يتلقى اللغة قط مادة يتصرف فيها وكأنها معطاة من قبل، بل الشعر هو الذي يبدأ بجعل اللغة ممكنة وكأنها معطاة من قبل، وبهذا الاعتبار ينبغي لنا أن نفهم ما هي اللغة من خلال ماهية الشعر"[5].

ومهما تكن قواعد اللغة مهيمنة على الشاعر فإنه يستطيع أن يتحرر منها بواسطة الإيجاز والإطناب أو في استعمال الكلمات[6].

---

[1] دراسة في لغة الشعر: 14، 15.

[2] اللغة والشاعر، ماري بوروف، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، مجلة الثقافية الأجنبية السنة الثانية، العدد الأول، 1982: 99.

[3] المرجع نفسه: 122، حول دراسة الكلام الفني، ف.ف. وزينوف،ترجمة د.جميل نصيف.

[4] لغة الشعر العربي الحديث وقدرته على التوصيل، د. محمود أمين العالم في ضمن كتاب (في قضايا الشعر العربي المعاصر): 29.

[5] في الفلسفة والشعر، مارتن هيدجر، ترجمة د. عثمان أمين: 96.

[6] الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، اليزابث درو، ترجمة د. محمد إبراهيم الشوش: 87.

وعلى امتداد الزمان فقد ساهم الشعراء في إثراء اللغة عبر خلق طائفة من الصيغ الجديدة أو منح المفردات دلالات جديدة يمكن فهمها من خلال التركيب كله ولذا يعد الشعراء من أهم الشرائح التي تثري اللغة وتشيع الحياة في مفاصلها.

الكلمة في الشعر:

تتبني قدرة الشاعر على التعبير عن انفعالاته على ما يملكه من خزين لغوي يفسح له المجال ليختار الكلمة المناسبة فهو الذي يعطيها أبعاداً جديدة من خلال استعمالها في سياقات جديدة ويخلق لها صلات جديدة بألفاظ أخرى لا تخطر على ذهن الإنسان العادي، لذا فالكلمة في الشعر تكتسب شعريتها بهذه الوسيلة التي تقود إلى استعمال الكلمة استعمالاً يثير الدهشة ويترك أثراً في نفس المتلقي وبهذه الوسيلة تكتسب الكلمة نقاء لم تكن تتمتع به من قبل ونحن نسمعها أو نقرؤها.

وقد أشار الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى طريقة إنتاج الشعر بتأكيده أن شعرية الكلمة يحددها السياق الذي ترد فيه وتحكمه علاقة الكلمة بما قبلها وما بعدها فقال: "إن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة، وإن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع أخر"[1].

إن اللفظة في المعجم ميتة تسري إليها الحياة في النص الشعري وتتدفق بالحركة والحيوية ولم يغفل ابن الأثير ذلك حين فصل بين معنى الكلمة المعجمي ومعناها وهي في النص الأدبي فقال "إن معنى اللفظة المفردة يتداخل بالتراكيب ويصير له هيأة تخصه وهذا ليس قدحاً في الألفاظ.. وأعجب ما في ذلك أن تكون

(1) دلائل الإعجاز: 38.

الألفاظ المفردة التي تركبت منها المركبة واضحة كلها وإذا نظر إليها مع التركيب احتاجت إلى استنباط وتفسير ... ولهذا أشباه كثيرة نفهم معاني ألفاظها المفردة وإذا تركبت تحتاج في فهمها إلى استنباط"[1].

أما الخزين اللغوي لدى الشاعر فهو ذخيرته في إنتاج الشعر فعلى امتداد عمر العربية الطويل وحجم النتاج الشعري الكبير فضلاً عن لغة القرآن الكريم وما يمكن أن يقترضه الشاعر من فصيح اللهجات المعاصرة ومصادر ثقافته الخاصة، ذلك كله هو المعين الثر الذي ينبغي أن يرده الشاعر، فلا تنهض قامته إلا بلغة ثرة تنوعت فيها مصادر هذه اللغة، فبإمكان الشاعر استيعاب آليات نمو اللغة وتعدد وسائل تجديدها فقد اتاحت العربية في مجال الصرف إمكانات غزيرة في مجال تصريف الأفعال واستعمال صيغ المجرد والمزيد وما تزال أفعال مجردة عديدة يبيح القياس استعمالها مزيدة وتسري الزيادة إلى المشتقات منها أيضاً فمن الممكن استعمال حروف للزيادة في مفردات عديدة لتكتسب دلالات غير مألوفة وبهذه الآلية يمكن للشاعر أن يثري اللغة ويطورها.

وقد زخرت العربية بحروف المعاني فللنفي عدد من الحروف لكن دوران هذه الحروف في الاستعمال ليس واحداً إذ يشيع بعضها دون غيرها وعلى قدر تمكن الشاعر من اللغة تقوم قدرته على استنفاد طاقتها عبر استيفاء هذه الحروف في شعره ولا نبالغ إذا قلنا إنّ بعض الأدوات النحوية أصابها الضمور في عربيتنا المعاصرة فأداة النفي (إن) التي حفل بها القرآن الكريم قل استعمالها ونادراً ما نجد شاعراً معاصراً يستعملها، ويصدق هذا الأمر على أدوات النداء فالشائع في الاستعمال هو (يا) وتقل الأدوات الأخرى مثل الهمزة وأي على الرغم من كونهما رشيقتين في الاستعمال.

---

(1) المثل السائر: 1/ 116.

وقد حفل المعجم العربي بعشرات المفردات التي ماتت في استعمالنا الحديث وتلك خسارة فادحة قلما يشعر بها الإنسان العادي بل المثقف في أقطارنا فأصبحت تلك الألفاظ حبيسة المعاجم بعيدة عن النور، ولا شك في أن إحياء هذه الألفاظ سيغني عربيتنا المعاصرة وتقع هذه المهمة بشكل خاص على عاتق شعرائنا المبدعين.

ويمكن القول إن لكل شاعر معجماً لغوياً[1] يتسع تبعاً لتمكنه من اللغة وإطلاعه على نماذج التعبير الراقية من شعر ونثر وكلما كانت خبرة الشاعر كبيرة باللغة، كانت اللغة اكثر طواعية له فتسهل عليه أساليبها وطرائق التفنن في استعمال مفرداتها وينبغي أن نفترض سلفاً أن عنصر الموهبة موجود ولذلك لا تعترض تلك الموهبة حينذاك أية عوائق تقتل انفعال الشاعر وتجعله أسيراً مقيداً لا يقدر على الإفصاح عما يحمل في أعماقه.

فإن ثقافة الشاعر باللغة وأسرارها أمر لا بد منه في عصر تكاد تتحد فيه مشارب المعرفة بأسرها، إن الشاعر يختار اللفظة المناسبة ويضعها في علاقة جديدة مع ألفاظ أخر لتكتسب وضعاً نحوياً خاصاً وهو في الوقت نفسه يحقق رغبته في خلق علائق بين اللفظة وما تقبله من مصاحبات لغوية جديدة ويمكنه ذلك من خلال استعمال آليات عديدة في اللغة كالإضافة إذ يستطيع الشاعر أن يضيف الكلمة إلى عدد لا يحصى من المضاف إليه وغالباً ما تكون هذه الإضافة غير حقيقية وقدرة الشاعر على توليد أنواع من المضاف والمضاف إليه تنبع من ثراء لغته وسعة خياله أيضاً فلو أخذ شاعر كلمة (ليل) بكل ما تحمله من إيحاءات وأضاف إليها فسيرى أن بإمكانه أن يضيف عشرات بل مئات الألفاظ نحو: ليل الشتاء وليل البحر، وليل الجوع، وليل الذئاب، وليل السلام وليل الحروب، وليل العاشقين،

---

[1] لغة الشعر عند المعري: 21.

وهكذا يستطيع الشاعر أن يضفي شعرية على الكلمة من خلال وضعها في علاقة الإضافة مع كلمة أخرى، وبراعة الشاعر تتحقق في قدرته على اختيار المضاف إليه مما يدهش القارئ ويفاجئه وبذلك يستطيع أن يضع الكلمة في مصاحبات لغوية جديدة لم تكن مألوفة في الاستعمال.

ولا تقتصر فكرة وضع الكلمة في مصاحبات لغوية جديدة على آلية الإضافة في اللغة بل بالإمكان أن يستفيد الشاعر من الصفة والموصوف فالشاعر يستطيع أن يغدق على الموصوف عشرات الصفات التي تبهر القارئ أو السامع وتشده إلى القصيدة، ولو اتبعنا امكانات العربية على خلق علائق جديدة بين الألفاظ لوجدنا أن معظم أبواب النحو قادرة على استيعاب فكرة المصاحبات اللغوية فبالإمكان وضع عشرات الأخبار للمبتدأ الواحد وعشرات الفاعلين للفعل الواحد ومعظم العلاقات التي تربط عنصري الجملة في مثل هذه الحال هي علاقات مجازية وجمالية التعبير ترقى بذلك الاستعمال الفريد الذي خصه الشاعر لهذه الكلمة أو تلك، وكلما اتسع الشاعر في إدراك خصائص اللغة بمستوياتها المختلفة أمكن أن يرقى شعره إلى مصاف فحول الشعراء وأمرائهم.

وسنتخذ من كلمة (التوباد) اسم جبل شهد قصة حب خالدة لنرى أنها تمتلك دلالة مادية تمكن الشاعر العربي القديم قيس بن الملوح من أن يجعلها في علاقات جديدة غير مألوفة لدى القارئ العادي وذلك من خلال أبيات اقتطعها للتمثيل فحسب.

قال الشاعر[1]:

فأجهشت للتوباد حين رأيته   وهلل للرحمن حين رآني

وأذريت دمع العين لما رأيته   ونادى بأعلى صوته ودعاني

---

[1] ديوان مجنون ليلى، عبد الستار احمد فراج: 275.

فقلت لــــه: أيــن الــذين عهـــدتهم حواليك في خصب وطيــب زمـــان

فقال: مضوا واستودعوني بلادهـــم ومن ذا الذي يبقى مع الحـــدثان؟

إن لفظة (التوباد) لا تشكل مغزى أبعد من دلالتها المادية الجامدة بالنسبة للإنسان العادي لكنها لدى الشاعر امتلكت طائفة من العلاقات بحكم ما أضفاه الشاعر من صفات إنسانية على تلك الذات الجامدة، إن نقل اللفظة من دلالتها الجامدة التي لا تعدو أن تكون مظهراً من مظاهر الطبيعة إلى ذات حية ترى وتسمع وتتبادل الحديث وتنادي هو ضرب من ضروب ميل الشاعر إلى الإحياء وهو إضفاء صفات حيوية إلى الأشياء الجامدة، إن هذا النهج يعد سمة من سمات الشعر لازمته منذ نعومة أظفاره حتى عصرنا الحاضر ذلك لأن الشاعر يرى أن الكون بكل ما فيه من مظاهر يتدفق بالحياة ولعل مخاطبة الشاعر الجاهلي الأطلال تعكس ميله إلى الأحياء ونظرته إلى الكون بصفته يجيش بالحياة[1].

إن سعة خيال الشاعر وعاطفته الجياشة مكنته من تصوير هذا الموقف الانفعالي الغزير بدلالاته وإيحاءاته وذلك عبر خلق صورة شعرية مادتها المفردة الموحية التي دخلت في علاقة إنسانية غير عادية وقد ذكر الدكتور خليل العطية: "إن أية صورة شعرية بما تحتشد فيها من تأثير صوتي وأبعاد فكرية وعواطف ثرة وخلق لعلاقات سياقية يبديها الشاعر ليس في أساسها غير صورة لغوية لأنّ الشاعر عند استعماله السياق اللغوي يخرج الكلمات من معانيها المعجمية (المحنطة) إلى سياق تتفجر فيه عشرات المعاني إذ في السياق اللغوي تتنفس الكلمات وتنبض بالحياة.

(1) التركيب اللغوي لشعر السياب: 18ـــ 19.

وقد أدرك الإمام عبد القاهر الجرجاني أن اللغة في الشعر تمتلك إيحاءً جديداً غير الذي تكون عليه وهي في المعجم وذلك في أثناء حديثه على معنى المعنى فقال:

"وإذا عرفت هذه الجملة فها هنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى ومعنى والمعنى،ونعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة وبـــ(معنى المعنى) أن تنقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذي فسرت لك"[1].

إن وضع الكلمة في علاقات سياقية جديدة تقود في بعض الأحيان إلى فكرة الغموض في الشعر مما يجعل طريقة توصيله معقدة وذلك لأنّ طريقة التوصيل في اللغة العادية تختلف عنها في لغة الشعر فالتوصيل في اللغة العادية يقوم على أساس المباشرة في التعبير والوضوح والتقدير ولكن التوصيل في الشعر ينبع من بنيته اللغوية الخاصة "مما يجعل الشعر بطبيعته غامضاً أي مختلفاً عن اللغة العادية على الرغم من استعانته بمفرداتها، فهو يصوغ هذه المفردات ويوظفها على نحو يختلف عنها في لغة الحديث العادي"[2].

إن الشاعر لا يرسل رسالة مباشرة إنه يقول الشعر ويترك أمر فهمه إلى المتلقي، وذلك يتبع سبلاً عديدة في التعبير قائمة على الإيحاء واستعمال الصور والرموز وتكون بين الألفاظ المتنافرة في الواقع على أساس المجاز وفنونه المختلفة، فليس هدف الشاعر أن يفهم المتلقي ما يقوله بل على المتلقي أن يفهم ما يقال وذلك حين يرقى بثقافته ومستوى إدراكه أسرار اللغة ويقوم الناقد بوصفه متلقياً من طراز

---

(1) دلائل الإعجاز: 203.

(2) لغة الشعر العربي، محمود أمين العالم: 29.

خاص قــادراً على كشـف ما لم يستطعه القارئ العــادي بأن يستوعب أداة الشاعر -اللغة - بمستوياتها جميعاً.

وبعد فأن اللغة في الشعر لغة حية تفصح عن حيويتها بقدرتها على تصوير انفعال الشاعر وتجربته في الحياة وبالتالي فهي لا تستسلم لأي شاعر بل لابد لعدد محدود جداً في كل زمان من أن يتمكن من اللغة فيستوعبها ويدرك أسرارها وحين ذاك تكون أداة طيعة قادرة على التعبير عن أي انفعال أو موقف إنساني جدير بأن يكون موضوعاً لقصيدته.

المصادر والمراجع

1. الزا وعيون الزا، لويس أراكون، ترجمة سامية أسعد وفؤاد مراد، الهيأة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970.
2. بنية اللغة الشعرية، جان كوهن وترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، دار تريفال للنشر، الدار البيضاء، ط الأولى، 1986.
3. التركيب اللغوي لشعر السياب، د. خليل العطية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986.
4. الخصائص لابن جني، تح: محمد علي النجار، ط الثانية، بيروت (مصورة).
5. دراسة في لغة الشعر، د. رجاء عبد، مط أطلس، القاهرة، 1979.
6. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود محمد شاكر، مط المدني، مكتبة الخانجي، 1984.
7. ديوان مجنون ليلى، تح عبد الستار أحمد فراج، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، د. ت.
8. الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، اليزابث درو، ترجمة د. محمد إبراهيم الشوش، بيروت، 1961.
9. في الفلسفة والشعر، مارتن هيدجر، ترجمة د. عثمان أمين، القاهرة.
10. في قضايا الشعر العربي المعاصر، دراسات وشهادات إعداد ريتا عوض، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1988.

11. كتاب الشعر، أرسطو طاليس، ترجمة إحسان عباس، دار الفكر العربي.

12. اللغة في الأدب الحديث، جاكوب كورك، ترجمة يوسف عزيز عمانؤيل، دار المأمون – بغداد، 1989.

13. لغة الشعر عند المعري، د. زهير زاهد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1989.

14. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تح: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، ط الأولى، القاهرة، 1959.

15. منهاج البلغاء وسراج الأدباء لابن حازم القرطاجني، تح محمد الحبيب بن الخوجة، ط الثانية، بيروت، 1987.

16. مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، ديفيد ديتش، ترجمة: محمد يوسف نجم، دار صادر – بيروت، 1967.

17. النقد الأدبي، مداخل تاريخية حول اتجاهاته الأساسية، د. عبد المنعم تليمة، ود. عبد الحكيم راضي، مطابع الشعب، القاهرة، 1977.

18. مجلة الثقافة ع1، س2، بغداد، 1982.